كلية أصول الدين والدعوة
بالمنصورة

رؤية نقدية للتصوف والصوفية

د . عبد العزيز المرشدى

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى علم الإنسان مالم يعلم . القائل فى كتابه العزيز : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٩) ، والقائل أيضا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ (الأنفال : ٢٩) .

والصلاة والسلام على رسول الله القائل : " الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " . وبعد :

فإن التصوف الإسلامى منذ بدايته فى أواخر القرن الأول الهجرى ، وبداية القرن الثانى ، كان ومايزال إشكالية كبرى مطروحة على الساحة الإسلامية .

وكونه إشكالية فلأنه مجال للأخذ والرد ، والقبول والرفض ، والبناء والنقد . إذ لم يكن فى فترة من الفترات موضع قبول من الجميع كما لم يكن موضع رفض من الكل .

ولاشك أن كثيراً من الممارسات الخاطئة قد ارتكبت باسم التصوف ، كما أن كثيراً من الأفكار المنحرفة كان الصوفية هم الحاملين لها ، كما أن بعض الفرق الضالة قد احتضنت التصوف كما حدث من جانب الشيعة .

لكن على الرغم من كل ذلك فإنه لا يجب أن نحمل التصوف كل

هذه التبعات لأن الممارسات الخاطئة للأفراد لايجب أن تتحملها المبادئ والنظريات .

والصوفية الملتزمون فى كل مراحل التصوف كانوا يقومون بحركة تصحيح ونقد للأفكار الشاذة التى تشوه الميدان الصوفى .

بل إن بعض الصوفية ربما يقسوا فى نقده لهذه الأفكار أكثر مما يوجهه أعداء التصوف أنفسهم .

والحقل الصوفى كغيره يحمل الأدعياء والأولياء . والفكر الصوفى كغيره يشمل الغث والثمين .

والمنصف من لا يضع الكل فى سلة واحدة ، بل عليه أن يفرق بين الأفكار ويوازن بين الرجال .

وأغلب الناقدين للتصوف خاصة أصحاب الاتجاه السلفى لا يفرقون بين حق وباطل فى هذا الميدان . بل لا يتورعون من الحكم بالكفر والضلال على أئمة كانت لهم أقدام راسخة وجهود جبارة فى ميدان العلم الشرعى كالإمام الغزالى والقشيرى .

فمن يقرأ ماكتبه عبد الرحمن الوكيل أو محمد جميل غازى وغيرهما يجد التجنى الواضح على الحقيقة أولاً وعلى شخصيات كبيرة ثانياً .

ومن يقرأ للإمام العالم ابن تيمية يجد الأنصاف متجسداً فى كل قضية يطرحها .

فتجده ينصف خصمه ولا ينجر نقده للفكرة على الأشخاص ، بل قد يعذر صاحب الفكرة بجهله أو بتأويله ، بل أنه حين سئل عن ابن عربى قال : " لو كنت مكانه كنت كافراً " . هذا فى الوقت الذى نجد كثيراً من علماء السلف من يكفر ابن عربى تكفيراً صريحاً ويرميه بالزندقة والإلحاد . مع أن ابن عربى قد كتب فى آخر حياته يقول لمن سأله عن عقيدته :

ياسائلـــــى عـــن عقيدتى ... أحســــــن الله ظنــــه

علــــــم الله أنهــــا ... شهـــــــد الله أنــــه

المهم أن التصوف والصوفية إشكالية كبرى أمام الفكر والعقل الإسلامى .

ومع ذلك لا يمكن إغفال الحركة الفكرية والروحية والوجدانية التى قام بها السادة الصوفية ، بل أنهم عند التحقيق يحملون راية الحياة الروحية فى كثير من فترات التاريخ الإسلامى .

وإلا فمن يستطيع أن يتجاهل رابعة العدوية ، والفضيل بن عياض ، والجنيد ، والشبلى ، وذا النون ، والقشيرى ، والسهروردى ، والغزالى ، والرفاعى ، والشاذلى ، وبشر الحافى ، وحمدون القصار ، وسهل التسترى ، وسفيان الثورى ، والبسطامى ، وعبد الحليم محمود ، والشيخ الشعراوى . . وغيرهم .

هؤلاء هم الذين أثروا الحياة الروحية فى التاريخ الإسلامى ، ووضعوا نسقاً كاملاً استمدوه من الكتاب والسنة والشريعة الإسلامية .

وما كانوا يوماً من الأيام يفرطون فى أوامر الشريعة لأنهم ما كانوا يفصلون بين الشريعة والحقيقة حيث لا تعارض بينهما .

بل إن الصوفية الحقيقيين كانوا لا يتساهلون مع من يحاول التحلل من الشريعة ، ولا مع من يفرط فى الأسباب بل يقول أحدهم ، إن ترك الأسباب بدعوى التوكل أسوأ من الذى يزنى ويسرق ، وأنهم كانوا يقولون من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق .

صحيح أن هناك مبالغات فى بعض الأمور كفكرة الولاية والكرامة ، والشيخ والمريد ، والسماع . لكن عند التحقيق نجد أن هذه المبالغات ليست من التصوف فى شئ .

وهنا كلمة لابد من طرحها حسبه لله ولرسوله ولجماعة المسلمين ، وهى أننا فى زمن يلزم كل داع إلى الله أن يركز على الجانب الروحى فى الإسلام ، وذلك لأن الحياة المادية قد فرضت نفسها على الناس وحضارة الأشياء هى الحضارة السائدة حتى فى البلاد الإسلامية .

فلابد من الاهتمام بالجانب الروحى والعاطفى فى مجال الدعوة . وبفضل من الله فإن التراث الإسلامى خاصة الصوفى منه مشحون بهذا الجانب سواء فى قصص الأنبياء والمرسلين أو فى قصص الصالحين من الصحابة والتابعين والأولياء على مر السنين .

وفى هذا الكتاب طرح لبعض قضايا التصوف القديمة والحديثة والتى كانت مثار جدل ونقاش منذ نشأتها وحتى اليوم .

وقد قسمته إلى مباحث :

المبحث الأول : حول ماهية التصوف ونشأته ومصادره .

المبحث الثانى : حول الموضوع الأكبر فى التصوف وهو الأحوال والمقامات .

المبحث الثالث : حول قضية الشيخ والمريد ، وعلاقة كل منهما بالآخر .

المبحث الرابع : الطرق الصوفية ، وكيفية الانتساب إليها .

المبحث الخامس : موقف الفقهاء من التصوف .

المبحث السادس : قضية الاحتفال بالمولد النبوى .

المبحث السابع : السماع عند الصوفية .

المبحث الثامن : الصوفية والتحلل من الشريعة .

هذا . . وأنى لأرجو الله عز وجل أن يعيد للمسلمين مجدهم وعزهم ، وأن تعود للمجتمعات الإسلامية الروحانيات التى افتقدوها حتى يحسنوا إسلام وجوههم لله .

والله من وراء القصد

المبحث الأول

ماهية التصوف ومصادره

مفهوم التصوف الإسلامى

قبل أن نتعرض لتعريف التصوف فى الاصطلاح لابد من البحث أولاً عن أصل اشتقاق كلمة التصوف والصوفى .

اشتقاق كلمة التصوف :

اختلف الباحثون حول أصل كلمة الصوفى من ناحية الاشتقاق ، وتباينت أقوالهم فى ذلك تبايناً كبيرًا حتى بين من ينتمون إلى التصوف من أمثال القشيرى ، والكلاباذى ، والطوسى . وقد ذكروا لنا عدة أقوال فى ذلك منها :

القول الأول : أنها نسبة إلى الصفاء لأن الصوفية – فى رأيهم – قوم صفت نفوسهم من كدورات الدنيا . (١)

وهذا الرأى وإن كان مقبولاً من حيث المعنى ، إلا أنه لا يتلاءم مع قواعد اللغة ، إذ النسبة إلى الصفاء صفائى وصفوى .

القول الثانى : أنها نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا يجلسون فى مؤخرة مسجد رسول الله – ﷺ – وهم جماعة من فقراء المهاجرين الذين لا يجدون مسكنًا فأذن لهم الرسول ﷺ – ريثما يجدون ما يكفيهم – بالمكث فيه ، وقد تشبه بهم الصوفية بعد ذلك .

وهذا الرأى لايتلاءم مع قواعد اللغة لأن النسبة لو كانت لأهل الصفة لقيل صُفِّىٍّ . وليس صوفى . (٢)

---

(١) عوارف المعارف ص ٦١ . الرسالة القشيرية ص ٢٧٩ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ص ٢٨ .

وإن كان هناك بعض الشبه بين أهل الصفة والصوفية خاصة فيما يتعلق بالزهد فى الحياة .

القول الثالث : أنها نسبة إلى الصف الأول حيث أن لهم تقدم فى العبادة ، وأن من صفت نفوسهم يكرمهم الله سبحانه فيصيروا فى الصف الأول عند الله فيقدمهم على غيرهم .[١]

وهذا الرأى وإن كان صحيحًا – بعض الشئ – من حيث المعنى لكنه لا يتلاءم مع قواعد اللغة إذ النسبة إلى الصف صَفِّى .

القول الرابع : أنها نسبة إلى صوفانة وهى بقلة صغيرة وقصيرة ونسبوا إليها لاكتفائهم بالقليل من الطعام ولو بنبات الصحراء .

وهذا الرأى غير صحيح لغويًا لأنه لو كان كذلك لقيل للواحد منهم : صوفانى .

القول الخامس : إن الكلمة مشتقة من كلمة سوفيا اليونانية . وقد قال بذلك – البيرونى – وسوفيا كلمة يونانية تعنى : الحكمة .[٢]

وهذا الرأى مستبعد لأن السين فى اليونانية تنقل بالعربية فلو كانت الكلمة يونانية لكانت النسبة سوفى بالسين وليس بالصاد . ثم إن كلمة صوفى شاعت فى البيئة العربية قبل ترجمة الفلسفة اليونانية .

القول السادس : أن الكلمة نسبة إلى الصوف . يقال : تصوف

---

(١) التعرف ص ٢٩ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفى ج٣ ص ٤٢ .

فلان : إذا لبس الصوف كما يقال تختم بالــذهب إذا لــبس الخــاتم ، وتقمص إذا لبس القميص . [1]

وهذا الرأى لكثير من العلماء وهو أولى بالقبول لعدة أمور :

١ – أنها تتفق مع قواعد اللغة العربية .

٢ – لأن لباس الصوف لباس خشن وهو عنوان على التقــشف والزهد خاصة فى فترة التصوف الأول .

٣ – أن الأنبياء والصالحين كان غالب لباسهم الصوف .

٤ – أن النسبة إلى ظاهر اللباس نسبة غير ممنوعة.فقد وصــف الله أصحاب عيسى عليه لسلام (بالحواريين) حيث كــانوا يلبــسون الثياب البيض .

والدليل على أن الأنبياء والصالحين كــانوا يلبــسون الــصوف مايلى :

أ – روى أنس بن مالك كما فى صحيح البخارى كان رسول الله ﷺ يجيب دعوة العبد ، ويركب الحمار ، ويلبس الصوف .

ب – قال رسول الله – ﷺ – لقد مرَّ بالصخرة مــن الروحــاء سبعون نبيًا حفاة عليهم العباء يؤمون البيت الحرام .

ج – يقول الحسن البصرى لقد أدركت سبعين بدرياً كــان لباســهم الصوف .

---

(١) عوارف المعارف ص ١٦ ، اللمع ص ١٤ ، التصوف الإسلامى للدكتور / زكى مبارك ج١ ص ٤٢ .

د – وصف أبو هريرة أصحاب الصفة فقال : كانوا يخرون من الجوع ، تحسبهم الأعراب مجانين ، وكان لباسهم الصوف . حتى أن بعضهم كان يعرق فى ثوبه فيوجد منه رائحة الضأن إذا أصابه الغيث .

هـ – قال أصحاب أبى عبيدة بعد فتح الشام : إنك بالشام وحولنا الأعداء ، فغيِّر من زيِّك الصوف الجافى واصلح من شارتك فقال : ما كنت بالذى اترك ما كنت عليه فى عصر الرسول ﷺ .

و – أويس القرنى – خير التابعين بإحسان – يتقدم يوم صفين محلوق الرأس وعليه أطمار الصوف .

أما لماذا نسبوا إلى ظاهر اللباس ؟

فقد قال العلماء إن ذلك لأن الصوفية دائمًا أحوالهم فى تقلب ، ووجدانهم فى تنوع ، فلا يقيدهم وصف ، ولا يحبسهم نعت . وهم فى ترقٍ دائمٍ ، وبهذا نسبوا إلى ظاهر لباسهم .

أو أن ذلك سترًا لحالهم ، وغيرة على عزيز مقامهم أن تكثر إليهم الإشارة فكان هذا أقرب إلى الأدب .

أو أن نسبتهم إلى ظاهر اللباس ينبئ عن تقللهم من الدنيا وزهدهم فيما تدعوا إليه النفس من ناعم اللباس والطعام . [1] هذا وقت إنزال مصطلح صوفى عليهم ، أما الآن فإن لبس الصوف عنوان الرفاهية وأمارة رغد العيش .

---

(١) ذكر بعض العلماء أن الصوفى هو الذى صوفى من الله عز وجل وأن " أل " بمعنى الذى . فهى من المصافاة والمودة لأنها علاقة خاصة بين هذا الشخص وبين الله سبحانه .

المعنى الاصطلاحى :

كما اختلف العلماء فى أصل الكلمة هل هى نسبة إلى الصفاء أو الصفة أو الصف أو الصوف . كذلك اختلفوا فى وضع معنى محدد للصوفى وللتصوف .

والسر فى الاختلاف أو على الأقل فى الاختلاف فى التعبير عن ماهو التصوف ومن هو الصوفى .

أن هذه الطائفة لهم أحوال ومقامات ومواجيد وأذواق . فالصوفى لايدوم على حال إذ هو فى ترق دائم . فالصوفى حال فى كل وقت .

ومن هنا فإنه يعرِّف التصوف حسب حاله الذى هو فيه . فكان لكل صوفى تعريف،بل إنه ليس غريبًا أن نجد للصوفى الواحد أكثر من تعريف وذلك حسب ما يغلب عليه من الأحوال والمواجيد ، وقد ذكر الطوسى أن أحد الصوفية له مائة تعريف للتصوف .

فيعرفه معروف الكرخى ت ٢٠٠ هـ بقوله (التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق) . [١]

ويعرفه أبو على الروذبارى ت ٣٢٢ هـ وقد سئل عن الصوفى بقوله (هو من صفا من الكدر ، وامتلأ من العبر ، وانقطع إلى الله من البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر) .

وله أيضًا وقد سئل عن الصوفى (من لبس الصوف على الصفا) .

---

(١) عوارف المعارف ص ٥٣ .

ويعرفه الجنيد – سيد أهل الطائفة – ت ٢٩٧ بقوله : (التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به) وقال التصوف (أن تكون مع الله بلا علاقة) [١] .

وسئل أبو محمد الجريرى ت ٣١١ هـ عن التصوف فقال : (الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كل خلق دنىّ) .

وقال بشر الحافى ت ٢٢٧ هـ . (الصوفى من صفا لله قلبه) .

وقيل الصوفى هو : (الذى لا يطفئ نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم فى باطن علم ينقضه ظاهر الكتاب والسنة ، ولا تحمله الكرامات على هتك استار محارم الله) . [٢]

وهكذا فإن الصوفية أنفسهم لم يتفقوا على تعريف محدد للتصوف وعدم الاتفاق يدل على أن هناك حقيقة اختلف الناس حولها نتيجة اختلاف مواجيدهم .

وأيضا فإنهم رغم الاختلاف فإن هناك قاسمًا مشتركًا بوجوده يكون التصوف وهو دوام التصفية .

وإذا جاز لنا أن نصيغ تعريفًا للتصوف فلنا أن نقول كما قال الدكتور مقداد (إنه منهج قلبى وروحى – نظريا وعمليًا – فى الحياة للوصول إلى الحق سبحانه والفوز برضوانه) [٣]

---

(١) عوارف المعارف ص ٥٣ .

(٢) ذكر القشيرى هذا التعريف عن سرى السقطى ، انظر العوارف ج١ ص ٧٠ .

(٣) فلسفة الحياة الروحية – د . مقداد يالجن ص ٧٣ .

نشأة التصوف

تعددت الاراء حول نشاة التصوف الإسلامى وتتلخص فى ثلاثة اتجاهات :

الاتجاه الأول :

أنه إسلامى النشأة والمنبت ، وأن أصـــوله العقديـــة والـــسلوكية مستمدة من الكتاب والسنة وفعل السلف الصالح . وأن هـــذا اللفـــظ – أيضا – كان موجودًا منذ القرن الأول الهجرى ويتزعم هـــذا الاتجـــاه أبو نصر السراج الطوسى ، وابن خلدون .

وقد أستدل أبو نصر السراج على هذا الرأى بروايتين فى كتابـــه (اللمع) [١] .

الأولى : أن الحسن البصرى كان يعرف هذا الاسم – الصوفى – حيث أدرك جماعة من الصحابة ، وأنه رأى صـــوفيًا فـــى الطـــواف فأعطاه شيئًا فلم يأخذه .

الثانية : أن سفيان الثورى قال : لولا أبو هاشم الـــصوفى مـــا عرفت دقيق الرياء .

وابن خلدون يقول : هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثـــة فـــى الملة.وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارهـــا

---

(١) ص ٤٢ .

من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم طريقة الحق والهداية . وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة [١] .

وكان ذلك فى الصحابة والسلف فلما فشى الأقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية . ومنذ ذلك الحين غلبت التسمية على هذه الطائفة من الزهاد فيقال رجل صوفى . وللجماعة صوفية [٢] وقال أصحاب هذا الاتجاه : إن السر فى عدم إطلاق لقب الصوفى واشتهاره فى عصور صدر الإسلام ، هو أن لقب الصحابى أشرف وأعز وأكرم من لقب صوفى ، وكذلك لقب التابعى . ثم بعد انقضاء القرون الفاضلة اشتهر من مال للزهد والعبادة باسم الصوفية ، والمنهج الذى يتبعونه باسم التصوف .

الاتجاه الثانى :

إن التصوف ليس إسلامياً بل هو وافد على البيئة الإسلامية نتيجة اتساع الرقعة الإسلامية واختلاط المسلمين مع غيرهم من الشعوب وتأثر المسلمين بعقائد وعادات الأمم الأخرى . خاصة وأن التصوف كان معروفاً قبل الإسلام فى الأوساط الفارسية والهندية و اليونانية و اليهودية و النصرانية . [٣]

---

(١) المقدمة ص ٤٦٧ .

(٢) ص ٢٧٩ من الرسالة القشيرية .

(٣) الصوفية معتقداً ومسلكاً ص ٤٨ للدكتور صابر طعيمة .

وأصحاب هذا الرأى لفيف من المستشرقين وقد استدلوا على ماذهبوا إليه بما يلى :

١ – أن الصوفية قد نشأوا فى بلاد فارس وماجاورها .

٢ – أن ثمة تشابه بين بعض قضايا التصوف وبين الديانات والعادات للأمم الأخرى .

الاتجاه الثالث :

قال به ابن تيمية حيث ذهب إلى أن بداية التصوف كان فى القرن الثانى ولكنه لم يشتهر إلا فى القرن الثالث حيث قال :

أول ما ظهرت الصوفية فى البصرة وأول من بنى دويرة الصوفية أصحاب عبد الواحد بن زيد وهو من أصحاب الحسن البصرى ، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك مالم يكن فى سائر الأمصار ، ولهذا يقال فقه كوفى وعبادة بصرية . (١)

والناظر بإمعان إلى هذه الاتجاهات الثلاثة يجد أنها لم تبتعد كثيرًا عن بعضها وأن بينهم وشائج وقربى خاصة إذا اعتبرنا أن بداية التصوف كان زهدًا وعبادة .

وهذا ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه كما يزعم أصحاب الاتجاه الأول ، وأن النزعة الروحية موجودة فى كل دين بل وفى كل

---

(١) مجموعة الفتاوى ج١١ ص ٦ .

مجتمع ، وهذا ماعليه أصحاب الاتجاه الثانى .

وأن كلمة صوفى لم تعرف إلا فى بداية القرن الثانى ، وذلك لاستغناء المسلم فى القرن الأول بلقب الصحابى – وهو أشرف – ثم بلقب التابعى ثم تابع التابعين . وهو ما عليه الاتجاه الثالث الذى يمثله ابن تيمية – رحمه الله – .

والخلاصة :

- أن كلمة صوفى لم تعرف إلا فى **القرن الثانى** ولم تشتهر إلا فى القرن الثالث بعد أن بنوا لأنفسهم أماكن يجتمعون فيها .

- أن التصوف كان فى بدايته سلوكاً فردياً يقوم على الزهد فى ملذات الدنيا والعبادة ، وكان يلقب أصحابه بالنساك أو الزهاد أو العباد ومن هؤلاء : الحسن البصرى – رابعة العدوية – عبد الواحد بن زيد والربيع بن خيثم ، والأسود النخعى ، وسفيان الثورى ، وابراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض .

- وبعد ذلك وفى **القرن الثالث** ظهر التصوف كحركة علمية تربوية وبدأ أصحابها يشرحون الطريق إلى الله ويجمعون المريدين ويضعون الأسلوب والمنهج الذى يتميز به عن المناهج الأخرى له علومه التى تشرحه طريقًا ومقاماً وحالاً .

ومن رجال هذه الفترة الإمام الجنيد ، ومعروف الكرخى ، الحارث المحاسبى ، وذى النون المصرى ، والبسطامى والدارانى .

♠ وفى **القرن الرابع** ظهرت شخصيات صوفية كان لها الأثـر البعيد فى التصوف ، مثل : الجريرى ، والخرّاز ، والدينورى .

وظهرت فيه بعض الطرق الصوفية ، ونظريات فى الـسماع ، والوجد ، والحب الإلهى ، والشوق . كما يلاحظ فى هذا القرن ظهور المؤلفات الصوفية الكبرى مثل : اللمـع [1] ، وقـوت القلـوب [2] ، والتعرف على مذهب أهل التصوف [3] .

♠ بعد ذلك وفى **القرن الخامس** بدأ التصوف يظهر فيه بعـض الأدعياء الذين كانوا سببًا فى تشويه صورة التصوف الناصعة حيـث سمعنا عن أناس كانوا يتحللون من الشريعة زاعمين أنهم وصلوا إلـى درجة تسقط عنهم التكاليف الشرعية ، الأمر الذى أدى إلـى ظهـور شخصيات تحاول الدفاع عن الحقل الصوفى المـستمد مـن الكتـاب والسنة مثل الإمام القشيرى ومن بعده الإمام الغزالى .

كما ظهر فى هذا القرن التصوف الممزوج بالفلسفة مثل مـاورد عن ابن سينا .

♠ ثم بعد ذلك وفى القرنين **السادس والسابع** اختلط التـصوف بالتشيع فبدأنا نسمع عن فكرة القطب الذى يشبه إلى حد بعيـد فكـرة الإمام ، وبدأنا نسمع عن الحلول والاتحاد بأسـلوب فلـسفى ويمثـل

---

(١) لأبى نصر السراج المتوفى ٣٧٨ هـ .

(٢) لأبى طالب المكى المتوفى ٣٥٨ هـ .

(٣) للكلاباذى المتوفى ٣٨٠ هـ .

الصوفية فى هذا الوقت السهروردى المقتول،وابن سبعين،وابن عربى .

وفى تلك الفترة تمايزت الفرق الصوفية تمايزًا شديدًا فوجدنا الرفاعية – والأحمدية والشاذلية . .

واختلط التصوف بالتشيع والتوكل بالتواكل . والحابل بالنابل ، وازداد أعداء التصوف لإزدياد عدد الدخلاء فيه ، بل وجدنا بعد ذلك – ونتيجة لتواجد الفكر المنحرف – من يكفر الصوفية ، ومن يبدعهم ، وصار أمر التصوف بين :

١ – **مؤيد للتصوف** وهؤلاء أيضا على مذاهب شتى منهم من يأخذ التصوف بعجره وبجره ، مدافعًا بكل ما أوتى من قوة عن التصوف وأهله ، ومبرراً لكل ما يصدر عنهم حتى وإن تعارض مع الكتاب والسنة ، وبين من يحاول غربلة التصوف نافياً كل الأفكار الغريبة والتى كانت سببًا فى هجوم المعارضين له .

٢ – **معارض للتصوف** لا يرضيه من التصوف حتى أقرب السلوكيات إلى الإسلام بل يرفضه جملة وتفصيلاً زاعمًا أن التصوف والتشيع وجهان لعملة واحدة . بل لا يتورعون عن الهجوم على علماء لهم وزنهم فى التاريخ مثل الغزالى والقشيرى .

والحقيقة أن التصوف شأنه شأن كل علم يؤخذ منه ويرد ، والمتصوفة شأنهم شأن كل طائفة منهم المحق ومنهم المبطل . بل إن شئت فقل منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون خاصة فى زماننا هذا الذى صار أغلب الصوفية لا يعرفون منه إلا إسمه وعند التطبيق

يكرم المرء أو يهان .

لكن أن نسوى بين كل الصوفية ونجعلهم جميعاً فى سلة واحدة ونرميهم بأقذع الألفاظ ونسبهم بأقبح السباب كما فعل الشيخ عبد الرحمن الوكيل فى كتابه (هذه هى الصوفية) والشيخ محمد جميل غازى فى كتابه (الصوفية الوجه الآخر) وآخرون خاصة ممن ينتسبون للمنهج السلفى الذين يحاولون اختزال الفكر الصوفى فى كلام ابن عربى وابن الفارض .

مع العلم بأن الصوفية لديهم حركة نقد داخلية لكل الأفكار التى لا تتفق مع ظاهر الشرع كما فعل الأمام الجنيد مع الحلاج . (١)



(١) سوف نقوم ببحث مستقل – إن شاء الله – حول حركة النقد الذاتى لدى الصوفية .

مصادر التصوف الإسلامى

حاول كثير من الباحثين أن يرد التصوف الإسلامي إلى مصادر غير إسلامية زاعمين أن المسلمين قد اعتمدوا في سلوك الطريق الروحي على تلك المصادر يستمدون منها مذاهبهم واتجاهاتهم.

وقد استند هؤلاء الباحثون فيما ذهبوا إليه إلى وجوه تشابه بين هذه المذاهب الأجنبية وبين التصوف الإسلامي.

وهذه المصادر التى ذكرها هؤلاء الباحثون هى:

١ - المصدر الهندى

حيث يذهب "[illegible]" إلى أن أصل التصوف مأخوذ من الهند وقد استدل على ما ذهب إليه بقوله : إن فكرة الفناء الصوفى هى نفسها النيرفانا الهندية ، وأن مذهب وحدة الوجود والاتحاد الموجود لدى الصوفية يرجع فى الحقيقة إلى الديانة البوذية الهندية .[١]

والمستشرق "ماسينيون" يذهب إلى أن طريقة الذكر لدى الصوفية المحدثين إنما جاء عن طريق الهند .

ويرى "جولد زيهر" أن قصة ابراهيم بن أدهم هى بعينها قصة بوذا .

ويمكن القول بأن مجرد وجود التشابه الظاهرى بين النيرفانا والفناء لايدل على استمداد الفناء من النيرفانا .

---

(١) تاريخ التصوف الإسلامي ص ٣٥ .

ثم إن التصوف الإسلامي لا يقوم على فكرة الفناء إذ الفناء لا يمثل إلا جزءًا من منظومة متكاملة ، وأيضًا فهناك فرق بين النيرفانا التي تصور النفس الإنسانية ، وقد فقدت فرديتها في الطمأنينة المطلقة والفناء الصوفي الذي يراد به الفناء عن الصفات البشرية المذمومة .

٢ – المصدر الفارسي :

يذهب فريق من الباحثين إلى أن التصوف مصدره فارسي مستدلين على ذلك بما يلي :

١ – فكرة الحلول التي نادى بها بعض الصوفية هي عقيدة الحلول لدى الديانة الفارسية .

٢ – فكرة تقديس البشر التي عرفت في الوسط الصوفي خاصة لدى الشيعة مأخوذة من الفرس .

٣ – أن كثيرًا من الشخصيات التي لها أثر كبير في الحياة الصوفية أصلها فارسي مثل معروف الكرخي ت ٢٠٠ هـ ، وأبو اليزيد البسطامي ت ٢٦١ هـ وسهل التستري .. الخ .

ويمكن الرد على هذا الفريق :

** بأن فكرة الحلول طارئة على التصوف الإسلامي وليست من أصوله بل من الفكر المنحرف الذي أدخل على التصوف وقد عارضها أصحاب التصوف الخالص .

** ثم أن فكرة تقديس البشر ليست من التصوف بل هي وافدة .

من الفرس وتبناها بعض المتطرفين من متصوفى الشيعة .

** أما كون بعض الصوفية من الفرس فهذا ليس بدليل إذ التصوف كما دخله الفارسى كأبى يزيد والكرخى دخله المصرى مثل ذى النون المصرى ، والعراقى كأبى سليمان الدارانى ، والعربى كمحى الدين بن عربى .

** على أننا لا ننفى أن هناك بعض التأثر خاصة فى الأدب الصوفى بالأدب الفارسى خاصة وهناك مجاورة ومخالطة بين الفرس والعرب .

٣ – المصدر المسيحى :

يذهب كثير من الباحثين – خاصة المستشرقين – إلى أن التصوف الإسلامى قد قام على أصول مسيحية مستندين فى ذلك على ما يلى :

** أن النصارى والرهبان كانوا فى شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وكانوا يعظون الجاهليين فى الأسواق ويبشرونهم بالجنة .

** ثم إن الأديرة كانت منتشرة حول الجزيرة العربية بما فى هذه الأديرة من رهبان وأن فكرة الرهبانية المسيحية والعزلة التى تميز بها الرهبان قد انتقلت إلى الوسط الإسلامى .

** تلك المأثورات التى وردت عن الحلاج – وهو من كبار الصوفية – عن فكرة اللاهوت والناسوت وحلول اللاهوت فى الناسوت .

** حياة الزهد والتقشف وإيثار الفقر على الغنى الذى كان يحياها الرهبان قد استلهمها الصوفية وطبقوها فى حياتهم .

** حياة السيد المسيح كانت مثالاً يقتدى به الصوفية .

ويمكن الرد على ذلك بأن الأخلاق الفاضلة والزهد ليس حكرًا على النصرانية بل هى قاسم مشترك بين الديانات الصحيحة جميعها .

ثم إن المسيح عيسى بن مريم ليس غريبًا على الوسط الإسلامى خاصة وقد ذكره القرآن الكريم فى مصاف أولى العزم من الرسل ، وذكره الرسول – ﷺ – أيضا فى كثير من أحاديثه الشريفة فلا غرابة أن يكون للمسيح عيسى حضور فى الوسط الصوفى .

وأخيرًا فإن الحلاج مع تفرده باستعمال هذه المصطلحات قد نبذه صوفية عصره .

٤- المصدر اليونانى :

ذهب بعض المستشرقين إلى أن التصوف الإسلامى مبنى فى أساسه على الفلسفة اليونانية .

وقد استدل على ذلك بما يلى :

١ – أصل مصطلح التصوف هو نفسه معرب من كلمة سوفيا اليونانية التى تعنى الحكمة . وقد أبطلنا هذا الرأى .

٢ – التشابه الظاهرى بين نظرية الفيض التى قال بها أصحاب المدرسة الأفلوطينية المحدثة . وبين فكرة العلم اللدنى أو العلم الوهبى .

٣ – ظهور نزعة إشراقية ممزوجة بالتفلسف في الوسط الصوفي مثل ما نقل عن ابن عربي ، والسهروردي المقتول وابن سبعين .

٤ – ظهور بعض العناصر الفلسفية في أقوال ذي النون المصري ، الأمر الذي جعل ماسينيون يقول بأن التأثر بالفلسفة بدأ مبكرًا ثم اتسع بعد ذلك في القرن السادس والسابع .

والحقيقة أن ترجمة الفلسفة اليونانية إنما كان في عصر المأمون وقد قلنا إن التصوف في بواكيره الأولى كان زهداً وقد نشأ كرد فعل مضاد لانكباب المجتمع على الدنيا وزخارفها بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

ثم إن هناك فارقًا كبيرًا بين منهج التصوف القائم على القلب والروح ، وبين منهج الفلسفة القائم على التأمل العقلي .

ولسنا نمنع أن يكون هناك نوع من التأثير للفلسفة اليونانية على الساحة الإسلامية الذي أنتج لنا فلاسفة كبار من أمثال ابن سينا وابن رشد وابن باجه وغيرهم الكثير ، لكن هؤلاء لم يطلق عليهم صوفية بوجه من الوجوه .

ولسنا نمنع أيضا أن أفكارًا فلسفية قد تبناها بعض الذين ينتمون إلى الحقل الصوفي لكن هؤلاء الصوفية – أصحاب التصوف الفلسفي – قد اختلف في شأنهم اختلافًا كبيرًا بحيث نرى بعض العلماء يرميهم بالكفر والزندقة مثل صاحب كتاب (تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي)

وقد نبه صوفى كبير وهو الإمام الغزالى إلى خطورة تطبيق المنهج الفلسفى اليونانى على العقيدة ، وأيضا حذَّر كثيرًا من أن قضايا الألوهيــة فى الفكر اليونانى بعيدة كل البعد عن الرؤية الإسلامية الصحيحة .

وختامًا فإن التصوف الإسلامى الخالص لا يمكن تلمس مصادره بعيدًا عن المصدرين الأصليين للإسلام وهما الكتاب والــسنة ، وكــذا سيرة النبى محمد - ﷺ - والتى كانت تطبيقًا عمليًا لآيــات الكتــاب العزيز وكذا سيرة أخوانه من الأنبياء السابقين .

ومع ذلك لا ننكر أن نوعًا من المبالغة من جانب الصوفية فـــى بعض القضايا كما سنذكر خاصة فيما يتعلق بقضية الولاية ، والكرامة ، وعلاقة المريد بشيخه .

كما لا ننكر أن نوعًا من التأثير والتأثر قد حدث بين التــصوف وبين الأفكار الوافدة أيًا كان مــصدرها وذلــك لأن طبيعــة الأفكــار البشرية تقوم على هذا الأمر خاصة والتصوف الإسلامى قد انتشر فى بيئات كثيرة ومتنوعة .

كما أن الحضارات لايمكن قيامها مستقلة عن بعضها إذ ما مــن حضارة إلا وهى متأثرة بغيرها ومؤثرة فى غيرها .

لكن هذا التأثر لا يعنى إلغاء الخــصائص والعامــة والثوابــت الأصيلة لتلك الحضارة .

والصوفية كغيرهم من البشر لهم سماتهم الخاصة الذين استقوها من منابع الإسلام الأصيلة وهذا لايمنع أن يكون لهم نوع تأثر بغيرهم.

وأما أوجه الشبه بين قضايا التصوف وبين الأفكار الوافدة من خارج البيئة الإسلامية . فإن الحقيقة التى يجب إدراكها أن الناس ليسوا على وتيرة واحدة فى قبولهم للحق وانقيادهم له أو طريقتهم فى التعبد .

وقد نبه القرآن الكريم على تنوع إدراكات الناس حيث منهم من ينقاد إلى الحق بعقله ، ومنهم من يقاد بعاطفته وقلبه . يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ . [١]

فمن اليهود أناس يميلون إلى الزهد والعزلة .

ومن النصارى كذلك من ترهب ومال إلى الأديرة واعتزل الناس وكذلك من الفرس والهنود من مالوا إلى ذلك لكن مع ذلك فإن صوفية الإسلام ليسوا هؤلاء جميعا لأن لهم سماتهم الخاصة بهم التى لا تبعد كثيرًا عن الكتاب العزيز ونهج الرسول محمد - ﷺ - وصحابته الكرام .

❁ ❁ ❁

(١) سورة النحل : آية ١٢٥ .

المبحث الثانى

المقامــات والأحــوال

المقامات والأحوال

إن الصوفية لهم طريق روحى ، يسيرون فيه ، وهـذا الطريـق يعتمد أساسًا ومنهجًا وغاية على القـرآن الكـريم ، والـسنة النبويـة الشريفة . وهذا الطريق قد جربه الصوفية فثبتت ثماره عـن طريـق التجربة .

وجوهر الطريق الصوفى هو ما سـماه الـصوفية : المقامـات والأحوال .

✍ **والمقامات فى اللغة** : جمع مقام . وهو موضع القيام ، ويشمل الأمر الحسى كقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ (البقرة : ١٢٥) ، والأمر المعنوى كقوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝ ﴾ (الإسراء : ٧٩) وهو مقام الشفاعة .

✍ **وأما الحال فى اللغة** : فهو من الفعل حال الذى يعنى انتقل ، ومرَّ وزال . قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ۝ ﴾ (الإسراء : ٧٧)

✍ **والمقامات فى الاصطلاح** كما يقول ابن عربى : كل صفة يجب الرسوخ فيها ، ولا يصح التنقل عنها كالتوبة . (١)

✍ **والأحوال** : هى كل صفة تكون فيها فى وقت دون وقت ، كالسكر والمحو ، والغيبة ، أو يكون مشروطاً بشرط ، فتنعدم لعدم

(١) الفتوحات المكية ج١ ص ١٥١ .

شرطها ، كالصبر مع البلاء والشكر مع النعماء . [١]

** **فالمقامات إذاً** : هى المنازل الروحية التى يمر بها السالك إلى الله فيقف فيها فترة من الزمن مجاهدا فى إطارها حتى يهيئ الله سبحانه وتعالى له سلوك الطريق إلى المنزل الثانى لكى يتدرج فى السمو الروحى من شريف إلى أشرف ، ومن سام إلى أسمى ، وذلك مثلا كمنزل " التوبة " الذى يهيئ إلى منزل " الورع " ومنزل " الورع " يهيئ إلى منزل " الزهد " وهكذا حتى يصل إلى منزل المحبة ، وإلى منزل الرضى .

وهذه المنازل لابد لها من جهاد وتزكية ولذلك يقولون عنها : أنها مكتسبة وأنها اجتهاد فى الطاعة ، ومواصلة فى التسامى فى تحقيق العبودية لله سبحانه .

** **أما الأحوال** : فإنها النسمات الروحية التى تهب على السالك فتنتعش بهما نفسه لحظات خاطفة ، ثم تمر تاركة عطرًا تتشوق الروح للعودة إلى تنسم أريجه وذلك مثل الأنس بالله ، والقبض ، والبسط .

وسواء كنا بصدد المقامات أم بصدد الأحوال فإن الصوفية قد اختلفوا فيها بين مجمل لها ومفصل . ولكن الملاحظ أنهم – فى وصف المقامات والأحوال – لا يتعارضون . واختلافهم ليس اختلاف تناقض وتعارض وإنما هو اختلاف بسط وإيجاز .

---

(١) الفتوحات المكية ج١ ص ١٥١ .

يقول الإمام أبو نصر السراج الطوسى عن المقامات :

والمقامات مثل التوبة ، والورع ، والزهد ، والفقر [1] ، والصبر ، والرضى ، والتوكل . . وغير ذلك .

ويقول عن الأحوال : " وأما معنى الأحوال : فهو ما يحل بالقلوب ، أو تحل بها القلوب من صفاء الأذكار " .

ولقد حكى عن الجنيد رحمه الله أنه قال : الحال نازله تنزل بالقلوب فلا تدوم .

ويقول الطوسى أيضا : وليس الحال عن طريق المجاهدات والعبادات ، والرياضات . كالمقامات التى ذكرناها وهى أى الحال مثل : المراقبة ، القرب والمحبة ، والخوف ، والرجاء والشوق ، والأنس ، والطمأنينة والمشاهدة ، واليقين وغير ذلك .

ويقول الإمام القشيرى عن المقامات :

والمقام ما يتحقق به العبد بمنازلته أى بنزوله فيه ، وبما اكتسب له من الأداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ، ويتحقق به بضرب تطلّب ومقابلة تكلف .

فمقام كل واحد موضع اقامته عند ذلك وماهو مشتغل بالرياضه له [2]

---

(١) ليس المراد بالفقر هنا معناه المادى الذى يعنى عدم وجود الشئ بل المقصود به الافتقار إلى الله وأن لا يغتر بالمال . فإن الرسول ﷺ قد استعاذ بالله من الكفر والفقر .

(٢) الرسالة ص ٢٠٤ ج١ .

وشرط المقام : ألا يرتقى من مقام إلى مقام آخر مالم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل . ومن لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبه له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد . [١]

ويقول عن الأحوال : " والحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب واكتساب لهم من طرب ، أو حزن أو بسط . [٢]

هل يمكن أن يتحول الحال إلى مقام ؟

نعم قد يكون الشئ بعينه حالا ، ثم يصير مقاما . مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بغلبه صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله ، ويغلب حال المحاسبة فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه .

فيصير فى مقام المحاسبة بعد أن كان فى حال المحاسبة ثم ينازله حال المراقبة فمن كانت المحاسبة مقامه يصير له من المراقبة حالاً .

ثم يحول حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة فى باطن العبد إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ويتدارك الله عبده بالمعونة فتصير

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٦ .

المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بعد نزول حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بنازل حال المشاهدة .

فإذا منح العبد حال المشاهدة استقرت المراقبة وصارت مقامه .

وحال المشاهدة يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاما وذلك بحال الفناء والبقاء . . وهكذا . ولا ينبغى أن ينتقل عن الذى هو فيه إلا بعد إحكام مقامه .

الفرق بين الأحوال والمقامات :

فالأحوال : مواهب . والمقامات : مكاسب .والأحوال تأتى من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود .

وصاحب المقام مُمَكّن فى مقامه ، وصاحب الحال مترق عن حاله [1]. والأحوال مواجيد ، والمقامات طريق المواجيد .

أقسام الأحوال والمقامات :

يقسم ابن عربى هذه الأحوال والمقامات إلى أربعة أقسام :

أ – منها ما يتصف به الإنسان فى الدنيا والآخرة . كالمشاهدة والجلال والجمال والهيبة والبسط .

ب – منها ما يتصف به الإنسان إلى حين موته ، أو إلى يوم القيامة أو إلى أن يضع قدمه فى الجنة كالخوف ، والقبض ، والرجاء .

---

(١) الرسالة ص ٢٠٦ .

ج – منها ما يتصف به العبد إلى حين موته . كالزهد والتوبة والورع والمجاهدة والتخلى والتحلِّى .

د – منها مايزول لزوال شرطه ويرجع لرجوع شرطه مثل الصبر والشكر . [1]

❋ ❋ ❋

---

(١) الفتوحات المكية ج١ ص ١٥١ .

وإذا أراد الإنسان أن يتأسى برسول الله ﷺ فيحاول أن يقترب ما استطاع من قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ .

إذا أراد الإنسان أن يدخل فى معنى الإسلام كيف يبدأ ماهى الخطوة الأولى ؟

إنه يبدأ بالدخول فى النظام القرآنى .

والدخول فى النظام القرآنى معناه : العزم على التخلى عما ليس بقرآنى . وهذا ما يسمى فى العرف الإسلامى أو النظام القرآنى (بالتوبة) .

ولقد أمر الله فى القرآن بالتوبة ، وحث عليها ، وحبب فيها وأوجبها فى بعض الأحيان .

تعريف التوبة :

وسئل الجنيد عن التوبة فقال : هو نسيان ذنبك . وسئل سهل التسترى عنها فقال : أن لا تنسى ذنبك .

ومعنى قول الجنيد أن تخرج حلاوه ذلك الفعل من قلبك حتى لا يبقى له أثر حتى تكون بمنزلة من لا يعرف عنه شيئا .

وأما سهل فإنه يقصد أن يظل ذنبك أمامك حتى تداوم على

الاستغفار . وقال ذو النون المصرى : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وتوبة خواص الخواص من رؤية أعمالهم .

مراتب التوبة :

والواقع أن التوبة تعد اللبنة الأولى للوصول إلى الله ، وهى اللبنة الأولى فى طريق إسلام الوجه لله .

يقول أبو يعقوب يوسف السوسى رحمه الله : أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى : التوبة .

وسئل السوسى عن التوبة فقال : التوبة الرجوع عن كل شئ ذمه العلم إلى ما مدحه العلم . [١]

ولقد فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، تفضلا منه ورحمة . ويقول سبحانه فى حديث قدسى : " يا عبادى انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم " .

ويقول المصطفى ﷺ : " كل بنى أدم خطاء وخير الخطائين التوابون " .

وما من شك فى أن توبة العوام كما يقول ذو النون : ؓ : هى من الذنوب ، وأما توبة الخواص فإنها من الغفلة ، وتصل التوبة فى سموها فتكون مما سوى الله تعالى . ورسوله ﷺ يخبر أن الله سبحانه وتعالى " يفرح بتوبة عبده المؤمن " . [٢]

---

(١) قضية التصوف . للدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٧ .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

ويعرفنا رسول الله ﷺ : " أن ربنا ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا عند ثلث الليل الأخير فينادى : ألا هل من مستغفر فأغفر له ، ألا هل من تائب فأتوب عليه " .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر : ٥٣) .

ويلى هذه الاية الكريمة ما يبين الطريق إلى المغفرة والرحمة ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ . (الزمر : ٥٤) .

أى ارجعوا إلى الله بالتوبة وإسلام الوجه له ، ثم يبين لهم الطريق الصحيح الذى يلى التوبة إذا صدقت بقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ . (الزمر : ٥٥) .

وإذا صدقت التوبة فإن هذا الصدق يستتبع كلازم من لوازمه أن يستقيم الإنسان على الطريق ، والله سبحانه يخاطب الذين يحاولون التعلل بالقدر ، ويحذرهم فى الدنيا مهددًا تهديدًا يقصد به حث الإنسان على أن يسارع بالتوبة الصادقة ، فهو تهديد من رحمان رحيم .

يقول سبحانه : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ

وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ الزمر .

فإذا ماقال الإنسان ذلك أو تعلل بأمثاله ، فإن الرد يأتيه من رب العزة : ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ . [١] الزمر .

ثم يبين الله سبحانه وتعالى حال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة فيقول :

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ . الزمر .

والآن : قد وضح الطريق ، فهو :

أولاً : التوبة .

وثانيًا : اتباع أحسن ما أنزل الله .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم متابعة للأوضاع الإسلامية يبدأون أعمالهم الهامة بالتوبة الخالصة النصوح ، لقد كانوا يبدأون

---

(١) سورة الزمر : آية ٥٩ .

شهر رمضان بالتوبة ويبدأون الحج بالتوبة .

والرحلة المباركة ، رحلة " الإسراء والمعراج " بدأت بشق الصدر ، وشق الصدر بالنسبة لنا إنما هو التوبة الخالصة النصوح لأن التوبة تطهر وطهر .

وإذا تاب الإنسان فإن ذلك يكون بمثابة إتيان ملكين يشقان عن صدر الإنسان ، ويغسلانه بالثلج والبرد أو بماء زمزم ، أى يطهرانه .

أن التوبة تطهر الإنسان من المعصية ، وأنها تَجُبُّ ما قبلها أى تزيله وتمحوه .

والتوبة التى من هذا النمط لها شروط لابد من توافرها حتى تهيئ الإنسان لشق الطريق إلى الله تهيئة موفقة .

شروط التوبة :

يقول الإمام النووى : فى رياض الصالحين . قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب .

فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق أدمى فلها ثلاثة شروط .

أحدها : أن يقلع عن المعصية .

الثانى : أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا .

الثالث : أن يندم على فعلها .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت قذفًا ونحوه مكنه منه ، أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها . (١)

هل تجوز التوبة من بعض الذنوب دون البعض ؟

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى . وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

من تجب عليه التوبة ؟ :

تجب التوبة على كل مسلم لقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

وبقى الحديث فيما يتعلق باتباع أحسن ما أنزل الله ، واتباع أحسن ما أنزل . يبدأ بما كان يبدأ به رسول الله ﷺ مع الداخلين فى الإسلام ، أعنى مواد البيعه .

ومن المبايعات التى بايع عليها رسول الله ﷺ أصحابه ما كان قبل فتح مكة ، قبل الهجرة كما فى بيعة العقبة حيث قال النبى ﷺ لمن حضر من الأنصار : " بايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى

---

(١) رياض الصالحين .

عن المنكر ، ولا تخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى " .
ومنها أيضا : بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم . . . فبايعناه على ذلك .

وقد تحدث القرآن الكريم عن بيعة النساء بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ الممتحنة .

وكانت هذه البيعة عقب فتح مكة بعد بيعة الرجال ويتحدث ابن جرير عن هذه البيعة فيقول :

" ثم اجتمع الناس بمكة لبيعه الرسول ﷺ على الإسلام فجلس لهم على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل من مجلسه فاخذ على الناس السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قائلا : بايعنى على ألا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ولا تعصينني فى معروف " . ثم قال ﷺ لعمر : " بايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم " .

وروى عن جرير بن عبد الله ﷺ قال : بايعت رسول الله ﷺ

على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم . [١]

نخلص من ذلك إلى أن التوبة هى أول درجة فى سلم الترقى إلى الله ، وهى تظل مع الإنسان طوال حياته حيث لا ترتبط بالذنب إذ قد علمنا أن رسول الله ﷺ كان دائم التوبة والاستغفار حيث قال : " يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إليه واستغفره فى اليوم مائة مرة " .

وإذا صدقت توبة العبد ترقى إلى درجة أعلى وهى درجة الورع .

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر ص ٦٢ من كتاب : قضية التصوف للإمام الأكبر الدكتور / عبد الحليم محمود .

مقام الورع

تعريف الورع :

يقول القشيرى : أما الورع فهو ترك الشبهات [١] .

ويقول ابراهيم بن أدهم : الورع ترك كل شبهه ، وترك ما لا يعنيك .

وقال أبو سليمان الدارانى : " الورع أول الزهد ، كما أن القناعة طرف من الرضا " [٢] .

ويقول يحيى بن معاذ : " الورع على وجهين ورع فى الظاهر وهو ألا يتحرك إلا لله تعالى ، وورع فى الباطن وهو ألا يدخل قلبك سوى الله تعالى " . [٣]

ودخل الحسن البصرى مكة ، فرأى غلاما من أولاد على بن أبى طالب ﷺ قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوثب عليه الحسن . وقال له : ما ملاك الدين ؟ فقال الورع . فقال له : فما آفة الدين ؟ فقال الطمع . فتعجب الحسن منه .

والورع : هو أن يترك الإنسان كل مافيه شبهة . ولا نتحدث عن ترك الحرام . وذلك أن التوبة الصادقة إنما هى : أولاً وبالذات : توبة

---

(١) الرسالة ج١ ص ٣١٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٦ .

عن الحرام : كل حرام . وتوجيه رسول الله ﷺ ــ متناسقا فى ذلك مع القرآن ــ كثير مستفيض فيما يتعلق بالورع من ذلك ما أخرجه الشيخان عن " النعمان بن بشير " قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : " أن الحلال بين ، وأن الحرام بين . وبينهما مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ، ألا أن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغه ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب " . (١)

ومن ذلك ما رواه الحسن بن على رضى الله عنهما قال : حفظت من رسول الله ﷺ : دع ما يريبك إلى مالا يريبك . رواه الترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

ويقول الإمام النووى : معناه : أترك ما تشك فيه ، وخذ مالا تشك فيه . (٢)

وعن عطية بن عروة السعدى الصحابى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع مالا بأس به " . رواه الترمذى .

---

(١) رياض الصالحين ص ١٨٦ .

(٢) نفس المصدر ص ١٨٧ .

أنواع الورع :

والورع يكون فى الحديث ، والقلب والعمل . [1]

أما فى الحديث : فإنه التورع عن اللغو بجميع ضروبه ، وترك كلمات الفضول ، وترك كل حديث ليس من شأنه إلا قطع الوقت دون فائدة أو ثمرة .والورع فى الحديث ليس سهلا .

ويقول فيه الإمام القشيرى : الورع فى المنطق أشد منه فى الذهب والفضة . ولا تدخل الغيبة والنميمة فيما نحن فيه ، وذلك أننا فى مستوى لا ينزل إلى مستوى الأثام والذنوب لأن التائب قد تخلص من ذلك كله قبل أن يصل إلى الورع .

والورع فى القلب ، هو عدم انشغاله بالتوافه من الخطرات ، ويتسامى الورع فى القلب حتى يصل إلى ما يقوله الإمام " الشبلى " .

الورع : أن تتورع عن كل ما سوى الله .

أما الورع فى الأفعال : فإنه يتضمن التحرى فيما يتعلق بالمأكل والمشرب والملبس ، حتى يكون كل ذلك من حلال طيب .

ولقد كان أسلافنا رضوان الله عليهم يتحرون فى ذلك ما استطاعوا ، وذلك أن النور فى القلب ، والصفاء فى العبادة ، والتوفيق فيما يأتى الإنسان وفيما يدع ، وكل ذلك له علاقة قوية بطيب المطعم والمشرب والملبس .

---

(١) انظر قضية التصوف ص ٦٣ .

والجو الإسلامى كله يحث على ذلك ، ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تجمع بين توجيه القرآن الكريم ، وتوجيه الرسول ﷺ متناسقا مع القرآن الكريم ما يلى :

عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ : ﴿ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ . فقام سعد بن أبى وقاص ، وقال : يارسول الله : ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوى . فقال : ياسعد أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت ، فالنار أولى به .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ المؤمنون : ٥١ .

وقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ . البقرة : ١٧٢ .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء ، يارب يارب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك " .

وكان الحارس المحاسبى : إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب

على رأس أصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال . [1]

وقيل : أن بشر الحافى دعى إلى دعوة فوضع بين يديه طعام فجهد أن يمد يده عليه فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات . فقال رجل يعرف ذلك منه : إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوى أن يدعو هذا الشيخ [2] .

❁ ❁ ❁

(١) الرسالة ج١ ص ٣١٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣١٩ .

مقام الزهد

يقول الإمام أبو نصر سراج الطوسى :

الورع يقتضى الزهد .

ويقول : " والزهد مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضيه والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه فى الزهد ، لم يصح له شيئا مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة " .

تعريف الزهد :

سئل الشبلى عن الزاهد فقال : ويلكم أى مقدار لأقل من جناح بعوضة حتى يزهد فيها .

وقال على بن أبى طالب : : الزهد أن لا تبالى من آكل الدنيا من مؤمن أو كافر .

وقال الجنيد : الزهد هو خلو الأيدى من الأملاك والقلوب من الطمع .

وقال سفيان الثورى : الزهد فى الدنيا قصر الأجل وليس بلبس الغليظ .

وقيل : هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . (١)

---

(١) الرسالة ج١ ص ٣٢٧ .

والتعريفات للزهد كثيرة ومختلفة وسبب هـذا الاخـتلاف مـن التعبيرات أن كل واحد كان ينطق عن وقته .

كيف توفق بين الدعوة إلى الزهد وبين استعاذة الرسول ﷺ من الفقر ؟

ومسألة الزهد من المسائل التى كثر الجدل فى تحقيق مفهومها ، وكثر الجدل فيها قبولاً ورفضا . وجوهر المناقـشات يتركـز حـول امتلاك المال ، والثراء العريض : أهو مقبول ؟ أهو مكروه ؟ مـاهو موقف الدين من ذلك ؟

وإذا كان الثراء العريض لا يتفق مع الأجواء الدينية ، فكيف ملك بعض كبار الصالحين الثروات الكبيرة ؟ كيف ملك الأنبيـاء علـيهم السلام الأموال والضياع مثـل " داود " و " سـليمان " و " وإبـراهيم وأيوب " ونظائرهم ، و " يوسف " عليه السلام على خزائن الأرض ، ومحمد ﷺ والصالحون من بعده .

يقول " أبوسعيد " فى كتاب (الصدق) :

" اعلم أن الأنبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضى الله عنهم أمناء لله تعالى ، فى أرضه على سره وعلى أمره ، ونهيه وعلمه ، وموضع وديعته ، والنصحاء له فى خلقه وبريته وهم الذي عقلوا عن الله تعالى أمره ونهيه ، وفهموا لماذا خلقهم ، وما أراد منهم ، وإلام ندبهم ، فوافقوه فى محبته ونزلوا فى الأمور عند مشيئته ثم وقفوا عند ذلك مواقف الصبر الألباء ، القابلين عن الله ، والحافظين

لوصيته ، وأصغوا إليه بأذان فهومهم الواعية وقلوبهم الطاهرة ، ولم يتخلفوا عند ندبته ، فسمعوا الله عز وجل يقول : ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد : ٧) .

ثم قال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (يونس : ١٤) .

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ . (البقرة : ٢٨٤) .

وقال تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

فأيقن القوم بأنهم وأنفسهم لله تعالى ، وكذلك وماخولهم وملّكهم أنما هو له ، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى فى هذه الدار .

وهكذا يروى عن ابن الخطاب ﷺ ، حين سمع : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ (الإنسان : ١) .

قال : ياليتها تمت : يعنى " عمر " قبل قراءة : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ .

ومعنى قول " عمر ﷺ " ياليتها تمت " يعنى : لم يخلق حين سمع الله تعالى يقول : لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا .

وذلك من معرفة عمر ﷺ بواجب حق الله وقدر أمره ونهيه

وعجز العباد عن القيام به وقيام الحجة لله تعالى عليهم عند تقصيرهم وما تواعدهم به إذا ضيَّعوا .

ويروى عن الحسن ﷺ أنه قال :

" إن الله تعالى إنما أهبط آدم عليه السلام إلى الدنيا عقوبة ، وجعلها سجناً له حين أخرجه من جواره ، وصيره إلى دار التعب والاختبار " .

فمن ملك من أهل الفهم عن الله تعالى ، وأهل الصدق شيئا من الدنيا فهو معتقد أن الشئ لله عز وجل ، لا إله إلا هو ، من طريق حق ما خوله الله تعالى وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه لأن النعمة بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها ، يستعين بها على طاعة الله تعالى .

وكذلك البلوى والعزاء هو اختبار وبلاء حتى يصبر عليه ويقوم بحق الله تعالى منه .

وكذلك قال بعض الحكماء " العلم كله بلاء حتى يعمل به " .

قال الله عز وجل : ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ . (الملك : ٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ . (محمد : ٣١) .

فالأنبياء صلوات الله عليهم والصالحون من بعدهم الذين أغناهم الله بأن أبلاهم فى الدنيا بالسعة وخولهم كانوا إلى الله عز وجل ساكنين

لا إلى شئ ، وكانوا خزانًا لله جل ذكره فى الشئ الذى ملكهم ينفذونه فى حقوق الله تعالى غير مقصرين ولا مفرطين ولا متوانين ولا متأولين على الله ، وكانوا غير متلذذين بما ملكوا ولا مشغولى القلوب بما ملكوا ولا مستأثرين به دون عباد الله تعالى .

ومن ذلك ما روى عن " سليمان بن داود " عليهما السلام فى ملكه ، وما أباحه الله تعالى من الكرامة حين يقول تعالى : ﴿ هَـٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾ (ص : ٣٩) .

قال أهل التفسير : " لا حساب عليك فى الآخرة " ، وقد ذكر العلماء أن " سليمان عليه السلام " كان يطعم الأضياف الحوارى وهو (لباب البُر ، وخالص الدقيق النقى) ، ويطعم عياله الخشكار وهو (الدقيق الخشن) ، ويأكل هو الشعير .

وكذلك روى العلماء أن " ابراهيم عليه السلام " كان لا يأكل إلا مع الضيف ، فربما لا يأتيه الضيوف فيطويها ، وربما كان يمشى الفرسخ ، أو أقل ، أو أكثر تلقيًا للضيف .

قال : وكان " أيوب عليه السلام " لا يسمع أحدًا يحلف بالله تعالى إلا رجع إلى منزله ، فكفر عنه .

وروى العلماء أن " يوسف عليه السلام " كان على خزائن الأرض وكان لا يشبع فقيل له فى ذلك ، فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجياع .

ولقد روى أن سليمان عليه السلام بينما هو ذات يوم والريح تحمله والطير تظله ، والجن والأنس معه وعليه قميص من حرير فلصق ببدنه فوجد اللذة فسكنت الريح ووضعته على الأرض فقال لها مالك ؟ قالت إنما أمرنا أن نطيعك ما أطعت الله ففكر فى نفسه من أين أتى ؟ فذكر فراجع ، فحملته الريح .

ولقد روى أن الريح كانت تضعه فى اليوم مرات من هذا وأشباهه .

فالقوم كانوا خارجين عن ملكهم فى ملكهم ناعمين بذكر الله وعبادته ، غير ساكنين إلى ما ملكوا ، لا يستوحشون من فقده أن فقدوه ، ولا يفرحون بالشئ ولا يحتاجون إلى العلاج والمجاهدة فى إخراجه .

قال الله تعالى للنبى ﷺ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ (الأنعام : ٩٠) .

ويروى عنه ﷺ أنه لبس حُلة فيها علم ، فطرحها وقال كادت تلهينى أعلامها .

وكذلك روى أنه صنع خاتم ذهب ليختم به الكتب إلى من أمره الله تعالى بإنذاره ، فلبسه ثم طرحه من يده وقال لأصحابه : إليه نظرة ، وإليكم نظرة .

وكذلك روى أنه ﷺ غيَّر شراك نعله فجعل مكانه جديدا فقال :

ردوا الشراك الأول .

ومثل هذا فى الأخبار كثير والعاقل الفطن تكفيه الإشارة إليه بالشئ ، وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ حين حثهم على الصدقة جاء " أبو بكر " بماله كله لأنه كان أقوى القوم فقال له النبى ﷺ : ما خلفت لعيالك ؟ قال : الله ورسوله ولى عند الله مزيد . . .

أفلا ترى . . أبا بكر ﷺ إنما كان سكونه إلى الله تعالى لا إلى شئ ولم يكن لشئ عنده قدر ، فحين رأى موضع الحق لم يخلف منه شيئا . وقال خلفت الله ورسوله . ثم جاء عمر ﷺ بنصف ماله فقال النبى ﷺ ما خلفت لعيالك ؟ قال : نصف مالى ولله عندى المزيد .

ثم " عثمان " ﷺ يجهز جيش العسرة كله بجميع ما يحتاج إليه ، ويحفر بئر رومه .

أفلا ترى أن القوم كانوا معدين الشئ لله تعالى . . .

ومما يدل على صدق قولنا : أن القوم كانوا خارجين مما ملكوا وهو فى أيديهم ، يعدونه لله عز وجل .

لقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : أنا معاشر الأنبياء لا نورث ماتركناه صدقه .

أفلا ترى أنهم فى حياتهم لم يضنوا بالشئ عن الله عز وجل .

وكذلك لم يورثوه وخلفوه لله عز وجل عما كان فى أيديهم لله تعالى لم يحدثوا فيه ، ولم يخولوه من بعدهم أحدا . . .

وإن هذا لبلاغ لمن عقل عن الله وأنصف من نفسه ، وهؤلاء أئمة الهدى بعد رسول الله ﷺ " أبو بكر " ﷺ حين ملك الأمر وجاءته الدنيا راغمة متى حلها لم يرفع بها رأسا ولم يتصنع ، وكان عليه كساء يخلله أى يخيط مابه من خلل . .

وهذا . . " عمر بن الخطاب " ﷺ حين جاءته الدنيا راغمة فرفضها ، وكان طعامه الخبز والزيت ، وفى ثوبه بضع عشرة رقعة بعضها من أدم ، وقد فتحت عليه كنوز (كسرى) و (قيصر) .

وهذا " عثمان " ﷺ كأنه واحد من عبيده فى اللباس ، والزى ، ولقد روى عنه : أنه رؤى خارجا من بستان له وعلى عنقه حزمة من حطب فقيل له فى ذلك فقال : أردت أن أنظر إلى نفسى ، هل تأبى؟

وهذا " على بن أبى طالب " ﷺ فى الخلافة ، قد اشترى أزاراً بأربعة دراهم ، واشترى قميصا بخمسة دراهم ، فكان فى كمه طول فتقدم إلى خراز – أى خياط – فأخذ الشفره فقطع الكم مع أطراف أصابعه ، وهو يفرق الدنيا يمنه ويسره .

وهذا " الزبير " ﷺ يخلف حين مات من الدين مائتى ألف أو أكثر كل ذلك من الجود والسخاء والبذل . . .

نخلص من ذلك أن الزهد الحقيقى لا يتنافى مع الثراء وامتلاك الأموال مادام صاحبه لا يابه بالدنيا وزينتها وزخارفها .

والزهد يكون عن وجْد وليس عن فقد . ولذا كان رسول الله ﷺ

يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ويعطى صفوان واديًا مملوءًا بالغنم ومع ذلك مات عليه السلام ولم يكن فى بيته زيت يوقد به السراج .

ومقام الزهد يؤدى إلى التوكل.

❁ ❁ ❁

مقام التوكل

التوكل هو كما يقول الإمام سهل بن عبد الله :

" الاسترسال مع الله على ما يريد " ومعنى ذلك : أن يسكن الإنسان إلى النتائج بعد أن يكون قد أخذ بالأسباب بقدر طاقته " .

وقال حمدون القصار (من أئمة الصوفية) :

" التوكل هو الاعتصام بالله تعالى " [1] أى الاعتصام بالله فى اتباع أوامره ، والاعتصام بالله فى اجتناب نواهيه ، والاعتصام بالله فى الحركة ، والاعتصام بالله فى النتائج والسكون إليه فى كل ذلك .

وسئل يحيى بن معاذ (من أئمة الصوفية) : متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : " إذا رضى بالله تعالى وكيلا " .

وقد أمر الله بالتوكل وجعله مقرونا بالإيمان لا ينفك عنه فقال ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقد يسمى توكلاً وتسليمًا ، وتفويضا ، والتوكل جزء لا يتجزء من الإسلام ، فإذا توكل الإنسان على الله ، وحسن توكله أحبه الله تعالى ، وتولى أمره بنفسه .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

وقال : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ . (الطلاق : ٣)

وليس المراد بالتوكل ترك الأخذ بالأسباب ، بل لابد مع التوكل

---

(١) ص ٢٤٠ من عوارف المعارف .

أن يأخذ بالأسباب متوكلا على الله تعالى ، وإلا أدى ذلك إلى التواكل أو الكسل .

يقول الإمام الغزالى :

" وقد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كخرقة ملقاه لا حركة لها ، وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام فى الشرع .

إن المعنى الحقيقى للتوكل هو :

أن يعتقد الإنسان اعتقادًا جازمًا ، أن الأسباب لا تلغى إرادة الله ، وأن إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب فى أسسها وبواعثها ، وهى مشرفة على الأسباب فى غايتها ونهايتها . وعلى الإنسان أن يعمل كما أمره الشرع وعليه أن يوكل أمر النتائج إلى الله سبحانه وتعالى .

وقد كان رسول الله ﷺ إمام المتوكلين ، وكان عليه الصلاة والسلام إمام المجاهدين المكافحين الأخذين بالأسباب .

والخليفة أبو بكر ﷺ حين بويع بالخلافة أصبح ذاهبًا إلى السوق يتَّجر كعادته فتكاثر عليه المسلمون قائلين : كيف تفعل هذا وقد أقمت لخلافة النبوة ؟

فقال لهم " لا تشغلونى عن عيالى ، فإنى أن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع " وما زالوا به حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يعملون ويكتسبون وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين .

ويقول القشيرى :

أعلم أن التوكل محله القلب ، والحركة فى الظاهر لا تنافى التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى فإن تعثر شيئ فبتقديره ، وإن اتفق شيئ فبتيسيره .

وإذا آمن العبد بتقدير الله تعالى فهو متوكل ، ويتحدث القرآن الكريم عن بعض الظروف التى ظهر فيها أن المؤمنين الصادقين هم الذين يتخذون الله وكيلاً . [1]

يقول تعالى عن المؤمنين فى غزوة أحد : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (آل عمران : ١٧٣) .

وكانت النتيجة لما عبر عنها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (آل عمران : ١٧٤) .

والقصة كما روتها كتب السيرة :

أن مشركى مكة لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين يوم أحد أخذوا فى العودة إلى مكة ، فلما استمروا فى سيرهم ندموا لما لم يتمموا على أهل المدينة ويجعلوها الفيصلة ، وكان من كلامهم : لا

---

(١) الرسالة ج١ ص ٤١٥ .

محمدا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ارجعوا ، وأرادوا العودة إلى المدينة ، ولكن أبو سفيان لم ينسى يوم بدر ، ولم ينسى أن الفئة القليلة يوم بدر غلبت ثلاثة أمثالها مع وفرة العدة فى الكثرة ، فأحب أولاً أن يقطع عود المسلمين ، وبينما هم يفكرون فى العودة إلى المدينة إذ مرَّ ركب من عبد قيس فقال أبو سفيان : أين تريدون ؟ قالوا نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة (نشترى الطعام) قال : فهل أنتم مبلغون عنى محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم فى مقابل ذلك زبيبًا بعكاظ إذا وافيتمونا ؟ قالوا : نعم . قال : إذا وافيتم محمدًا فأخبروه أنا قد جمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم ، ومرَّ الركب برسول الله ﷺ وآله وسلم وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذى قاله أبو سفيان وأصحابه ، فكان رد الفعل عند رسول الله ﷺ كما صوره القرآن : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ (آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤) .

قالوا ذلك واستعدوا مباشرة للقتال من جديد ، فمن كان مجروحا ضمد جراحه ، ومن كان قد كلَّ سيفه أحده ، ومن كان أمره متفرقا فى نفسه أو ماله أصبح أمره جميعا .

واستعدوا لخوض المعركة بكل ما يملكون من وسائل ، وبينما كان أبو سفيان ينتظر نتيجة الرسالة ، جاءه رجل من وفد عبد قيس

فقال له : لقد رأيتهم كالأسد الموتورة عازمة على الأخذ بالثأر فلما سمع أبو سفيان ذلك أسرع في العودة إلى مكة طلبًا للسلامة .

بهذا نرى أنه يجب على المتوكلين أن يأخذوا بالأسباب ، ويستعدوا كأكمل ما يكون الاستعداد ، وأدق ما يكون الاستعداد .

إن التوكل حال النبى ﷺ ، والكسب سنته ، فمن بقى على حاله فلا يتركن سنته .

قال الإمام سهل بن عبد الله :

" من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن التوكل فقد طعن في الإيمان " .

وصدق العبد في التوكل على الله يسلمه إلى مقام محبة الله عز وجل .

❁ ❁ ❁

مقام الحب

بعد أن انتهينا من الحديث عن التوكل وعلمنا أن المؤمن الحق هو من يأخذ بالأسباب ويكل أمر النتائج إلى الله تعالى ، مؤمنا بقضائه وقدره ، وأن اختيار الله له أفضل من اختيار لنفسه يصبح بعد ذلك مقبلا على الله ، راضيا به موثر الله على نفسه ، محبًا له أكثر من حبه لنفسه وماله وولده .

قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة : ٥٤)

قال الواسطى : كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته .

وقال أبو عبد الله القرشى : حقيقة المحبة أن تهب لمن أحببت كلك ولا يبقى لك منك شئ .

وقالت رابعة : محب الله لا يسكن أنينه وحنينه حتى يسكن مع محبوبه .

وقال الجنيد عن المحبة : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **فإذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده** ﴾ وقد قيل :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا　　نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته　　وإذا أبصرته أبصرتنا

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران : ٣١) .

وقال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٥٦).

فذكر فى الآية الأولى : محبته قبل محبتهم .

وفى الثانية : ذكر محبتهم له ومحبته لهم .

وفى الثالثة : ذكر محبتهم له .

وسئل الحسن بن على عن المحبة فقال : هى بذل المجهود والحبيب يفعل ما يشاء .

وقيل فى تعريف المحبة : استهتار – شغف – القلب بالثناء على المحبوب ، وإيثار طاعته والموافقة له .

وأهل المحبة على ثلاثة أحوال :

الحال الأول : محبة العامة ، ويتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم .

وشرط هذه الحاله كما قال سمنون : صفاء الود مع دوام الذكر ، لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره .

الحال الثانى : وهو يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وهو حب الصادقين والمتحققين .

وشرط هذه الحالة كما يقول أبو الحسين النورى :

هتك الستار وكشف الأسرار .

وقد سئل ابراهيم الخواص : عن المحبة فقال : محو الإرادات واحتراق جميع الصفات والحاجات .

والحال الثالث : فهو محبة العارفين ، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله بلا عله ، فكذلك أحبوه بلا علة .

وقد سئل أحدهم عن محبة العارفين فقال : لا تصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب .

وسئل الجنيد : عن المحبة فقال : أن تكون صفات المحبوب على البدل من صفات المحب .

وهذا هو ما أشار إليه الحديث . . . " . . حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به . . الحديث رواه البخارى .

الحب : هو الميل إلى الشئ الملذ ، فإذا زاد هذا الميل وعظم سمى عشقًا .

أما البغض : فهو نفور الطبع عن الشئ المؤلم المتعب ، وإذا زاد وقوى سمى مقتا .

والمحبة هى : إيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وقيل : هى محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب بذاته . [1]

(١) الرسالة ج٢ ص ٦١٥ .

ويختلف الشخص فى تقييمه للحب وذلك حسب نشأته وتطبعه وتربيته وعاداته ومثله وأخلاقه .

فالإنسان الذى يعرف الله حق معرفته لا يتصور أن يحب شيئا أكثر منه ، وذلك لأن أعلى درجة فى الحب هى ميل القلب إلى الله ، وبهذا المعنى يكون الحب هو الموافقة لإرادة الله والسير فى طريق الله والطاعة فيما أمر ، والابتعاد عما نهى ، والرضى بما حكم وقدر ، ويحوى ذلك جميعا معنى الإيثار والتضحية ونكران الذات .فبالمحبة يؤثر الإنسان ما يحب على نفسه فهى سعادة عند الإنسان ، واسترسال مع الله بحيث لا يبقى للحبيب حظ من شهوة أو رغبة فى متاع زائل ، سواء أكان ماديا أو حسيا .

ومن ناحية ليس لهذه المحبة من سبب ظاهر جلى ، أو علة واضحة ، وإنما هو الحب لله بلا سبب .

وفى الواقع أن المحب لله تعالى أسعد الناس حالاً فى الدنيا والآخرة لأنه يلقى الآخرة وهو سعيد بلقاء الله بعد طول شوق إليه ، فإذا أقدم عليه فهو فى أعظم حالات الرضى والنعيم لأن اللقاء إنما يكون اكتمالاً لرؤيته تعالى على الدوام ومشاهدته على الاستمرار من غير ألم أو حجب أو خوف أو تزاحم .

وعلى قدر قوة حبه لله تعالى على قدر ما يجده من النعيم ، وكلما زادت محبة الإنسان لله كلما ازدادت اللذة التى يحياها فى العالم الآخر وهذا الحب إنما يكتسبه الإنسان فى الحياة الدنيا وبشرى له فى الحياة

الآخرة لأن الدنيا هى مزرعة الآخرة وحب الله يمتاز به كل مؤمن لا ينقطع عنه أبدا ، وإذا زاد حب الإنسان لله تعالى انتهى إلى العشق ، وفى العشق يقطع الإنسان كل علاقة مع غير الله بإخراجها من القلب تماما .

والمحب لله قليل الاختلاط بالناس كثير الخلوه بالله ، دائم التفكر ظاهره الصمت ، لا يبصر إذا نظر ، ولا ينازع أهل الدنيا فى دنياهم ولا يحزن " لا ييأس " إذا أصيب ببلاء ، ولا يخشى شيئا ، وعلامة الحب الإلهى هو حب القرآن ، وحب النبى ﷺ ، وعلامة حبه ﷺ هو حب السنة الشريفة ، وعلامة الحب للسنة الشريفة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا ، أى لا ياخذ منها إلا زاده وينجو منها بنفسه .

إذًا الحب الصوفى هو :

أساس من الأسس النفسية لاستقامة العبد فى الدنيا والآخرة ، ومن ثمراته ألا يصاب المحب بخوف ، ولا قلق ، ولا اكتئاب ، ولا يفكر إلا فى الله وبالله فهو تائب عن هواه وشهواته ، صابر على ما يبتلى به ويمتحن ، زاهد فى طلبات النفس ، خائف من بعد حبيبه ، راج فى إقباله ووصاله ، بهذا الحب الصوفى الخالص المخلص يتولى الله أمر أحبابه ، ويدفع عنهم كيد أعدائهم ، ويحارب من حاربهم ، كما جاء فى الحديث القدسى يقول الله تعالى :

" من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبد

بشيئ أحب إلى من أداء ما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سالنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه " . رواه البخارى .

وأولياء الله سبحانه هم : " الذين آمنوا وكانوا يتقون " ومن عاداهم فإنما يعادى المؤمن التقى ، ومن عادى المؤمن التقى آذنه الله بالحرب .

وشروط الحب لله تعالى :

أداء فرائضه ، فالحب دون أداء الفرائض زيف وكذب بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله .

لقد ترك قوم العمل وقالوا نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا كما يقول الرسول ﷺ : " لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل " .

وهناك ارتباط وثيق بين محبة الله تعالى واتباع رسول الله ﷺ نجد ذلك واضحا فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران : ٣١) . فمن صدق المحبة اتباع الرسول ﷺ فى هديه وزهده وأخلاقه والتأسى به فى الأمور والأعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها .

ولأن هناك صلة وثيقة بين المحبة والإيمان فقد جعل الرسول ﷺ المحبة شرط من شروط الإيمان . قال ﷺ : " ثلاث من كن فيه وجد

حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما . . . " الحديث . رواه البخارى ومسلم .

وقال أيضا : " لا يؤمن العبدُ حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين " .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة : ٢٤) .

نخلص من ذلك :

أن محبة العبد لله مقام شريف لا يناله العبد إلا بعد محبة الله للعبد . ذلك أن محبة الله للعبد سابقة على محبة العبد لله كما قال تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة : ٥٤) .

ولا يمكن للعبد أن يكون محبًا لله إلا إذا كان متبعًا لهدى النبى ﷺ فى أوامره ونواهيه .

ومحبة النبى ﷺ أيضا ضمن محبة الله سبحانه معنى ذلك أن هذا المقام يشمل مع حب الله حب كل ما يحبه الله ويرضاه .

ولا يمكن الجمع بين مقام المحبة ومخالفة المحبوب إذ المحبة تقتضى أن يراك المحبوب حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك .

وقد أحسن القائل حين قال :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه   هذا لعمرى فى الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته   إن المحب لمن أحب مطيع

هذا ومقام الحب يقتضى التسليم والرضا بكل مايفعل المحبوب .

❁ ❁ ❁

مقام : الرضا

من ذاق طعم المحبة لله ورسوله ، وأصبح الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، فقد دخل فى دائرة الرضى بالله .

والرضا هو : أن يبذل الإنسان جهده ليصل إلى ما يحب الله ورسوله ، ولكنه من قبل الوصول إليه وفى أثناء محاولته الوصول إليه مطمئن إلى النتيجة على أى وضع أحبها الله ، راض بها .

وقال ابن عطاء الله السكندرى : الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد ، لأنه اختار له الأفضل .

وقيل ليحى بن معاذ : متى يبلغ العبد مقام الرضا ؟ قال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به يقول : إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ، وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت .

وقال الشبلى – رحمه الله – بين يدى الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله . قال الجنيد : قولك ذا ضيق صدر ، فقال : صدقت . قال : فضيق الصدر ترك الرضا بالقضاء . وقد قيل : كل ما يفعل المحبوب محبوب .

والرضا نوعان :

١ – رضا من جانب العبد عن الله سبحانه .

٢ – رضا من الله عن العبد .

قال تعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ (البينة : ٨) ، ورضا الله عن العبد مجازاته على طاعته ، وإعلاء ذكره فى الدنيا والآخرة ، فى حين أن رضا العبد عن الله هو الإذعان التام لإرادة الله والتسليم بقضائه وقدره ، والقيام بأمره . وبهذا يسبق الرضى الإلهى رضى العبد لأن الله إذا رضى عن العبد ألهمه الرضى بقضائه وقدره ، ووفقه لطاعته . لأن من لا يرضى الله عنه لا يوفقه لطاعته ، فرضى العبد رهن برضى الله عنه ولازم من لوازمه .

وإذا وصل العبد إلى مقام الرضا استوى عنده المنح والمنع ، والعطاء والحرمان ، واللذة والألم ، واستوى فى نظره الأحداث خيرها وشرها ، ما كان منها من الله تعالى كالفقر والمرض ، وكالغنى والصحة فى هذه الدنيا ..

سئل الحسين بن على رضى الله عنه عن قول أبى ذر الغفارى " **الفقر أحبُّ إلى من الغنى ، والسقم أحب إلى من الصحة** " **فقال** : رحم الله أبا ذر .

أما أنا فأقول : " إن من اتكل على حسن اختيار الله تعالى لم يتمن غير ما اختاره الله عز وجل " .

والمعنى : أنا أبا ذر حدد اختياره بخلاف الحسين فقال : أختار ما اختاره الله لى .

فالذى أجاب به الحسين هو : ترك إرادة العبد والتفويض لإرادة الله ، وهذا هو الرضى الصحيح .

والصوفى الكامل : هو الذى يحول نظره إلى المعطى دون الشيئ الذى أعطاه ، فإذا أعطاه الله النعمة لا يكون رضاه بها من حيث هى نعمة ، بل من حيث صدورها عن الله ، لأن الرضى بالنعمة من حيث هى اتكال إلى الأسباب ن وكذلك الذى يرضى بالبلاء ، يرضى به ويحتمل آلامه ، لا من حيث هو بلاء ، بل من حيث صدوره عن الله الذى اصطفاه ، فالله هو المقصود فى جميع الأحوال ، ومن كان رضاه بالله كان رضاه لكل شيئ .

فالرضا : هو قلب الحياة الصوفية ، والمحور الذى تدور حوله أخلاق الصوفى ، فمنه ينبع التوكل على الله والزهد فى الدنيا وهو الذى يورث السكينة فى القلب والاطمئنان إلى أحكام القضاء الإلهى ، وهو صنو المحبة الإلهية بل هو ثمرتها لأن من شأن المحب أن يرضى بكل ما يفعله المحبوب .

وللرضا فى الإيمان ركائز قوية وذلك أن المسلم يعتقد أن الله تعالى حكيم وأفعاله تجرى على مقتضى الحكمة ، ويعتقد أنه سبحانه رحمان ، وتصرفاته تجرى على مقتضى رحمته الحكيمة ، وحكمته الرحيمة .

والقرآن الكريم يذكر الرضا فى مناسبات كثيرة منها :

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الفتح : ١٨) .

وذلك حين بايع المؤمنون رسول الله ﷺ وآله على الجهاد وعلى الموت فى سبيل الله ، كانت بيعة على القتال لتحقيق العزة لله ولرسوله وهى بيعة الرضوان لقوله تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أى أن المؤمنين الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، لايوادوا من حاد الله ورسوله ، وإنما يعادونهم ويحايدونهم ، ورضى الله تعالى هو أن يقف الإنسان موقفا صلبا فى وجه كل من يحاد الله ورسوله ، قال تعالى للمؤمنين : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ (التوبة : ١٢٣) .

كما يتحدث سبحانه عن جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا فيقول : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ (المائدة : ٣٣) .

فالحرب دائرة على مر الزمن ، بين أنصار الله وأعداءه ، بين من ينتصرون للفضيلة وبين من يحاولون انتشار الرذيلة ، وحزب الله الذين قال عنهم رسول الله ﷺ : " ما تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خزلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة " .

وهم ظاهرون على الحق بكل مافى استطاعتهم من إمكانات ظاهرون على الحق بالسيف وبالمنطق ورسول الله ﷺ وهو إمام

المحبين وسيد الراضيين كانت حياته كلها كفاحا فى سبيل الله جهادًا بالسيف وجهادًا بالقول ، وكان رسول الله ﷺ الأسوة الطيبة للراضين .

نخلص من ذلك : أن الرضا مقام شريف من مقامات العبد فى رحلته مع الله سبحانه وتعالى ، وهو يعنى أن يرضى العبد عن الله فى قضائه وقدره ، وأن يسترسل مع الله على ما يريد الله .

والرضا عن الله لا ينافى الأخذ بالأسباب فى محاربة أعداء الله ، والحب فى الله والبغض فى الله .

❁ ❁ ❁

مقام : الصبر

الصبر مقام شريف من مقامات الصوفية حيث ذكره الله فى الكتاب العزيز فى أكثر من مناسبة منها قوله تعالى :

﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (النحل : ١٢٧).

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ۝ ﴾ (المعارج : ٥) .

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف : ٣٥) .

وكذلك ذكر رسول الله ﷺ الصبر فى أكثر من حديث منها قوله ﷺ : " إنما الصبر عند الصدمة الأولى .

وقوله : " الصبر نصف الإيمان " .

تعريفه :

لقد عرف الصبر بتعريفات وكان السبب فى اختلاف التعريفات أن كل واحد يعبر عن حاله الذى غلب عليه وقت التعريف .

قال الجنيد : الصبر هو : تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال ابن عطاء : الصبر هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقال رويم : الصبر ترك الشكوى .

وقال ذو النون : الصبر هو الاستعانة بالله .

وكان على بن أبى طالب يقول : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد . (١)

---

(١) الرسالة القشيرية ج١ ص ١٥٣ .

أقسامه : هو على قسمين :

١ – صبر على ما للعبد فيه اختيار وهو على ضربين :

أ – صبر على ما أمر . كالصبر على إقامة الصلاة . (صبر على المأمور) .

ب – صبر على ما نهى . كالصبر عن محارم الله . (صبر عن المحذور)

٢ – صبر على أقدار الله . وهو صبر العبد على ما يصيبه من مرض وفقر ، وكذا احتمال الأذى من أجل الله (صبر على المقدور) .

وللصبر ثلاثة أوجه :

١ – متصبر .

٢ – صابر .

٣ – صبار .

فالمتصبر : هو من صبر فى الله . فمرة يصبر على المكاره ومرة يعجز . ومثاله : مارواه القرآن عن سيدنا يعقوب حين قال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف : ١٨) ومع ذلك كان يقول : ﴿ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف : ٨٤) .

والصابر : هو من يصبر فى الله ولله ولا يجزع ، ويتلقى بلاءه بالدعة ، وإن اشتكى فلله . وذلك حين قال الله ليعقوب أتشكونى إلى خلقى فكان يقول : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ (يوسف : ٨٦) .

وكذلك حين مرض على بن أبى طالب فقيل له أتتأوه يا أبا الحسن . قال : أأشجع على الله !!

والصبَّار : هو الذى لو وقع عليه البلاء كله لا يتغير .

وقيل هو : الذى يشكر على البلاء ويصبر على النعماء .

وفى هذا المعنى يشير قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ ﴾ (إبراهيم : ٥) .

وقد قال أحد الصوفيه عن هذا النوع من الصبر:كنا إذا وجدنا صبرنا وإذا فقدنا شكرنا .

وقال أبو عثمان الدارانى عن هذا الوجه : هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره .

وقال بعض العلماء : أن الله قال عن أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ (ص : ٤٤) . ولم يقل : صبَّارا لأنه لم يكن جميع أحواله على الصبر ، بل كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ويستعذبه فلم يكن فى حال تلذذه بالبلاء صابرا . أو لأنه قال : (إنى مسنى الضر) .

وأشد أنواع الصبر على الصابرين هو الصبر عن الله .

وقف رجل على الشبلى وقال له أى الصبر أشد على الصابرين فقال : الصبر فى الله . فقال لا . فقال : الصبر لله . فقال : لا . فقال : الصبر مع الله . فقال :لا . فقال الشبلى ويحك ؟ فما هو ؟ فقال الصبر عن الله . فصرخ الشبلى صرخة كادت روحه أن تتلف .

من هذا كله نعرف أن للصبر درجات بدليل أن الله أمر رسوله ﷺ بقوله : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف : ٣٥) ومع ذلك قال له : ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ (القلم : ٤٨) .

وقيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) . أصبروا على بلائي ، وصابروا على نعمائي ، ورابطوا لمحاربة أعدائي ، واتقوا محبة من سوائي ، لعلكم تفلحون غدا بلقائي .

والشكوى إلى الله لا تتعارض مع الصبر ما دامت غير مصحوبة بجزع أو تسخُط على قدر الله . وسيرة الرسول ﷺ دليل على ذلك . حيث كان يقول : " أشكو إليك ضعف قوتي " وكان مع ذلك يقول : " إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي " .

نخلص من ذلك : أن الصبر مقام من مقامات الصوفية وهو حبس النفس على التسخط على المقدور ، وقد يصل إلى درجة الرضا عن المقدور ، وهو لا ينافي الشكوى إلى الله مادام بغير جزع كما أنه لا ينافي الأخذ بأسباب التداوي للعلاج لأنه مطلوب ديني .

وأشد أنواع الصبر على الصوفي هو الصبر عن الله ، وكما قال أحدهم :

الصبر يجمل في المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

مقام : الشكر

قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إبراهيم : ٧) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾
(إبراهيم : ٥)

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ (لقمان : ١٢) .

وقد روى عن رسول الله ﷺ حين قالت له عائشة يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال لها النبى ﷺ : " أفلا أكون عبدًا شكورًا " .

وحقيقة الشكر : الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وعلى هذا يوصف الله بأنه شكور توسعًا بمعنى أنه يجازى العباد على الشكر .

فسمى جزاء الشكر شكرًا كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى : ٤٠) .

وقيل حقيقة الشكر : الثناء على المحسن بذكر إحسانه وعلى هذا . . . فشكر العبد لله ، ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه وشكر الله للعبد ثناؤه عليه بذكر طاعته له .

أقسام الشكر :

١ – **شكر باللسان** : وهو اعترافه بالنعم .

٢ – **شكر البدن والأركان** : وهو الاتصاف بالوفاء والخدمة .

٣ – **شكر القلب** : وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة .

وقال الجنيد : الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة .

وقال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا النعمة .

والشكر وجهان :

١ – **شاكر** : وهو الذى يشكر على الموجود (العطاء) .

٢ – **شكور** : وهو الذى يشكر على المفقود (البلاء) .

وقال داود عليه السلام : الهى كيف أشكرك وشكري لك نعمة تستوجب الشكر ، فأوحى الله إليه الأن قد شكرتنى .

الفرق بين الحمد والشكر :

أن الحمد على مادفع والشكر على ماصنع . [١] وذلك تصديقا لقول الله : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ (فاطر : ٣٤) .

وإن كنت أرى أنهما وجهان لعملة واحدة .

فإن الحمد أحيانا يكون على الوهب والعطاء كما قال الله تعالى على لسان إبراهيم الخليل :

---

(١) انظر الرسالة ص ٤٤٤ .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (إبراهيم : ٣٩).

اللهم إلا إذا أخذ الحمد هنا على أنه سبحانه سلب عنه عدم الإنجاب .

وهكذا كان الشكر أحد درجات سلم الترقى مع الله عز وجل .

وكان بعض العارفين بالله يقول : اللهم إنك تعلم عجزى عن مواضع شكرك ، فاشكر نفسك عنى . [١]

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٢٠ .

مقام : المراقبة

قال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ (الأحزاب : ٥٢) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾ (النساء : ١) .

وقد روى البخارى فى صحيحه عن رسول الله ﷺ حين سأله جبريل ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والقدر خيره وشره ، حلوه ومره . قال : صدقت .

قال فأخبرنى عن الإسلام . قال : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان . قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . . . الحديث رواه الشيخان .

وقوله ﷺ : فإن لم تكن تراه فإنه يراك . إشارة إلى مقام المراقبة لأن المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه .

ولا يصل العبد إلى مقام المراقبة إلا بعد فراغه من المحاسبة فإذا حاسب العبد نفسه واصلح حاله فى الوقت ، ولازم طريق الحق وأحسن بينه وبين الله وراقب الله فى عموم أحواله فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب ومن قلبه قريب يعلم أحواله ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله .[1]

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٤٦٤ ج١ .

وقد عرف أبو القاسم البغدادي المراقبة بأنها : " مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة " . [١]

وقال ابراهيم الخواص : المراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالى .

وقال ذو النون المصرى : علامة المراقبة : إيثار ما آثر الله ، وتعظيم ما عظم الله ، وتصغير ما صغر الله . [٢]

ولقد سمع عمر بن الخطاب امرأة تقول لابنتها : أخلطى اللبن بالماء فأبت البنت وقالت أن أمير المؤمنين عمر قد أمر بعدم خلط اللبن بالماء . قالت الأم : أن عمر لا يرانا . فقالت البنت : إذا كان عمر لا يرانا فرب عمر يرانا .

وابن عمر رضى الله عنهما كان فى سفر فرأى غلاما يرعى غنما فقال له تبيع من هذه الغنم واحدة ؟ فقال : إنها ليست لى . فقال له : قل لصاحبها : أن الذئب أخذ واحدة . فقال الغلام : أين الله ؟ .

نخلص من ذلك : أن مقام المراقبة من مقامات الصوفية والذى يحس فيه الصوفى أن عين الله ترقب حركاته وسكناته وخفقات قلبه ، وأنه إذا لم يصل إلى درجة رؤيته لله فلا أقل من إحساسه برؤية الله له كما قال أحدهم :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ولكن قل علىَّ رقيب

---

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) المصدر السابق .

الرجاء

والرجاء هو ارتياح لانتظار ماهو محبوب عند الإنسان . وهذا المحبوب المتوقع لابد له من سبب . فالإنسان يرجو رحمة الله لكن لابد من عمل صالح ، وإلا صار أمنية . وهذا هو الفرق بين الرجاء والأماني .

والخوف والرجاء من باب واحد حيث يقعان على ما يتردد فيه . فالإنسان يرجو نزول المطر ولا يرجو طلوع الشمس ، ويخاف انقطاع المطر ولا يخاف من عدم غروب الشمس .

وضد الرجاء اليأس وهو محذور شرعًا . كما قال الله على لسان يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يوسف : ٨٧) .

ومقدمات الرجاء أربع :

١ – ذكر سوابق فضل الله على العبد .

٢ – ذكر ماوعد الله من جزيل ثوابه وعظيم كرمه .

٣ – ذكر كثرة نعم الله على العبد من غير سؤال .

٤ – ذكر سعة رحمة الله سبحانه .

يقول ابن القيم : فالرجاء ضروري للمريد السالك والعارف لو فارقه لحظة لتلف أو كاد يتلف ، لأنه دائر بين ذنب يرجو غفرانه ،

وعيب يرجو إصلاحه ، وعمل صالح يرجو قبوله ، واستقامة يرجو حصولها ، ومنزلة عند الله يرجو وصوله إليها .

وينبغى أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع . فالدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيها ، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها .

وكذا صاحب الزرع يطلب ارضا طيبة ، ويلقى فيها بذورًا جيدة ثم ساق إليها الماء وقت الحاجة ونقى الأرض من الشوك والحشيش ، ثم جلس ينتظر فضل الله وانتظاره هذا يسمى رجاءً . بخلاف مالو بذر فى أرض سبخة ، أو لم ينقها جيدًا ، أو لم يوصل إليها الماء فانتظاره يسمى تمنيًا .

معنى ذلك أن الرجاء يطلق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولا يبقى إلا ماليس له فيه اختيار .

وأعلى درجات الرجاء هو رجاء التنعم برؤية الله ولقائه فى الآخرة كما قال الله : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (الكهف : ١١٠) .

❁ ❁ ❁

حالا القبض والبسط

وهما حالان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء ، فالقبض للعارف الصوفى بمنزلة الخوف للمبتدئ ، والبسط للعــارف بمنزلـــة الرجاء للمبتدئ .

قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ (البقرة : ٢٤٥) .

والفرق بين القبض والبسط . أن القلب حين يرد عليه وارد الخوف ينقبض ، وحين يرد عليه وارد الرجاء ينبسط .

وتتفاوت نعوت الصوفية فى القبض والبسط على حسب تفاوتهم فى أحوالهم . كما يقول القشيرى ، ويقول الإمام الجنيد :

الخوف من الله يقبضنى ، والرجاء يبسطنى ، والحقيقة تجمعنى ، والحق يفرقنى ، وإذا قبضنى بالخوف أفنانى عنى ، وإذا بسطنى بالرجاء ردنى علىَّ ، وإذا جمعنى بالحقيقة أحضرنى ، وإذا فرقنى بالحق أشهدنى غيرى فغطانى عنه . فهو تعالى فى ذلك كله محركى غير ممسكى . [١]

وقال الواسطى : يقبضك عما لك ويبسطك فيما له .

وقال النورى : يقبضك بإياك ويبسطك بإياه . [٢]

---

(١) الرسالة ص ٢١٢ .

(٢) عوارف المعارف ص ٢٤٩ .

الهيبة والأنس

وهما فوق القبض والبسط . فالهيبة أعلى من القبض ، والأنـس أتم من البسط وحق الهيبة القيبة فكل هائب غائب ، وحق الأنس صحو بحق ، فكل مستأنس صاح . ولهذا قالوا أدنى محل الأنس أنه لو طرح فى لظى لم يتكدر عليه أنسه .

وقد سئل الجنيد عن الأنس . فقال : ارتفاع الحشمة مـع وجـود الهيبة .

وسئل ذو النون عن الأنس . فقال : انبساط المحب إلى المحبوب .

وقالت رابعة : كل مطيع مستأنس . وأنشدت تقول :

انى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقال الواسطى : لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش مـن الأكوان كلها .[1]

وقال ذو النون : ما ازداد أحد من الله قربة إلا ازداد هيبة .

❁ ❁ ❁

(١) عوارف المعارف ص ٢٤٦ .

الفناء والبقاء

أشار الصوفية بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة ، وبالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به .

وأعلم أن الذى يتصف به العبد أفعال ، وأخلاق ، وأحوال .

فالأفعال تصرفاته باختياره .

والأخلاق جبلّة فيه .

والأحوال ترد على العبد على وجه الابتداء لكن صفاءها بعد زكاء الأعمال . فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال : إنه فنى عن شهواته . ومن عالج أخلاقه فنى عن قلبه الحسد والحقد . يقال : فنى عن سوء الخلق .

وقد استدل السادة الصوفية على إمكان فناء الإنسان عن نفسه وعن أوصافه المذمومة بما حدث من النسوة حين دخل عليهن يوسف ﷺ . فقطعن أيديهن . حيث لم يجدن عند لقاء يوسف ألم القطع . وهن أضعف الناس وقلن : ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا ﴾ (يوسف : ١٢) ولقد كان بشراً وقلن : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾ ولم يكن ملكا .

فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق سبحانه فلو تغافل الإنسان عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه فأى أعجوبة فيه ؟ !

المبحث الثالث

الشيخ والمريد عند الصوفية

الشيخ والمريد عند الصوفية

يؤرخ عادة للتصوف على أنه فى جملته محاولة لتغيير الواقــع بالابتعاد عنه وتحقيره والمبالغة فى ذكر عيوبه ، وحث النـــاس علـــى الانضمام إلى حركتهم لا بالأساليب التى استخدمتها الشيعة الإسماعيلية ولكن بطرق أخرى .

وقد بدأ التصوف كما هو معروف بالزهد الذى انتشر بالكوفة فى نهاية القرن الأول ، وتمثل فى أناس يفرون من أنفسهم ومن الناس إلى المجاهدة أو البكاء أو الانعزال أو الانفــراد أو الــسياحة أو القتـــال ، أو العبادة المبالغ فيها بعض الشئ .

وهكذا . . . اتخذ التصوف شكلاً جماعيًــا فانــضم إلـــى رؤس المذهب على اختلافهم أتباع ومريدون وأصـــبحت جماعـــاتهم تـــشكل مراتب ودرجات تتجدد حسب الظروف ، والطريق الذى رسمه لهـــم مشايخ الصوفية ، ولعل الاختلاف يبدو واضحا فى وجهات النظـــر ، والنظريات التى وضع أسسها كبار الصوفية إلا أنه مـــن الممكـــن أن نميز الملامح العامة التى تتميز بها فكرة الشيخ والمريد عند الـــصوفية والتى تتمثل فى :

أ – علاقة المريد بالشيخ .

ب – واجبات المريد نحو الشيخ والشيخ نحو المريد .

ج – كيفية الدخول فى الفرقة .

د – مراتب أفراد الطرق التى يتدرجون فيها الواحد بعد الآخر ليصلوا بعدها إلى القمة ، حيث القطب والولى .

هـ – القطب أو الولى ونظريات الولاية .

أ – علاقة المريد بالشيخ :

يقول الأستاذ أبو على الدقاق أستاذ القشيرى " الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد أورق ، ولكنه لا يثمر . كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به لا يجئ منه بشئ " .

فالصحبة الصوفية أعم من مجرد التلمذة أو الاتباع وإنما هى من جهة الشيخ تعهد وإرشاد ومراقبة دقيقة ومحاسبة للمريد ، وتصحيح أوضاع ونقد وتعليم . وهى أيضا محبة وعطف وإشفاق وأخذ بالصرامة والعنف حيث تجب الصرامة أو العنف .

وهى من جانب المريد طاعة وحب وتفويض وفناء فى شخصية الشيخ المرشد ، وبهذا يستطيع الشيخ أن يوجه الطاقة الروحية الكامنة عند المريد ويخرجهامن القوة إلى الفعل على الوجه الذى يحقق لها ثمرتها .

يقول القشيرى فى رسالته : لما أثبت سبحانه للصديق رضى الله عنه الصحبة حكى أنه ﷺ أظهر عليه الشفقة فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة : ٤٠) فالحر شفيق على من يصحبه .

ويلاحظ على هذا النص الذى أورده القشيرى فى رسالته أن الصحبه أمر أساسى لدى الصوفية وهى حسب التعبير الإجمالى العلاقة الاجتماعية التى تربط بين فرد وآخر وهو يدلل على أهمية الصحبة إذ يقول الله تعالى : ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ فيتخذ من تأييد الله لصحبة الرسول ﷺ لأبى بكر ركيزة للصحبة الصوفية .

وتلك الصحبة التى تنطوى أقسامها الثلاثة على مضمون الطبقية حيث يحتوى المجتمع الصوفى على طبقات متتالية لها أساس خاص بها فهو إذن تقسيم يوضح نوعية العلاقة الاجتماعية السائدة فى المجتمع الصوفى .

المريد :

المريد عند الصوفية هو : الذى صح له ابتداء أو حصل فى جملة المنقطعين إلى الله تعالى .

تعريف آخر هو : سالك الطريق الذى يسير فى الطريقة حسب إرشادات شيخه فيسلك كما يرسمه له شيخه حتى يصل غايته .

والمريد هو المجرد عن الإرادة .

قال الشيخ محى الدين بن العربى فى الفتوحات المكية :المريد هو ما انقطع إلى الله عن نظر واستبصار ، وتجرد عن إرادته إذا علم أنه مايقع فى الوجود إلا مايريده الله تعالى لا مايريده غيره فيمحو إرادته ، فى إرادته فلا يريد مالا يريده الحق .

وهذه التعريفات فى جملتها تشير إلى أن المريد المبتدئ فى السير فى الطريق ، المتجرد عن الإرادة المنقطع إلى الله تعالى للوصول إلى المعرفة بإرشاد شيخ .

وذهب الغزالى إلى أن من شاهد الآخرة بقلبه مشاهدة يقين أصبح بالضرورة مريداً أحرص على الآخرة ، مشتاقا إليها ، سالك سبيلها ، مستهينا بنعيم الدنيا ولذاتها .

فالأساس الأول هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، ومن الإيمان بالله واليوم الآخر نشأت الإرادة ، ومن الإرادة يبدأ السلوك الذى إذا استمر فيه المريد ينتهى إلى الوصول .

قال الغزالى : المانع من الوصول عدم السلوك ، والمانع من السلوك عدم الإرادة ، والمانع من الإرادة عدم الإيمان .

صحة إرادة المريد :

لا تصح إرادة المريد حتى يكون الله ورسوله وساوس قلبه (شغل قلبه) ، ويكون نهاره صائما ولسانه صامتا «لأن كثرة الطعام والكلام والمنام تقصى القلب» وظهره راكعا ، وجبهته ساجدة ، وعينه دامعة ، وقلبه حزينا ، ولسانه ذاكرًا .

وبالجملة قد شغل كل عضو فيه بوظيفة ندبه الله تعالى ورسوله ﷺ إليها ، ويترك ماكره الله ورسوله له ، وللورع معانقا ، ولأهوائه تاركا مطلقا ، ورائيا جميع ما وفقه الله تعالى له من فضل الله عليه ،

ويجتهد أن يكون ذلك كله احتسابا لا ثوابا ، وعبادة لا عادة ، لأن من لاحظ المعمول له ، اشتغل به عن رؤية الأعمال ونفسه ، تاركا للشهوات .

فصحة الإرادة ترك الاختيار والسكون إلى مجارى الأقدار كما قال القائل :

أريد وصاله ويريد هجرى ∴ فأترك ما أريد لما يريد

ويتطور الأمر إلى الفناء عن الإرادة بفعل الله تعالى ، وعلامته ألا تريد مرادا قط لأنك لا تريد مع إرادة الله سواها بل يجرى فعله فيك فيكون أنت أرادة الله وفعله . ساكن الجوارح ، مطمئن الجنان ، مشروح الصدر ، منور الوجه ، عامر البطن ، تقلبك القدرة ويدعوك لسان الأزل ، وينزلك منازل من سلف من أولى العلم .

ما يجب على المريد :

١ – الاعتقاد السليم الخالي عن البدع .

٢ – التوبة النصوح بأن لا يرجع إلى الذلات .

٣ – إرضاء الخصماء حتى لا يبقى عليه حق لمخلوق .

٤ – تحصيل علم الشريعة بقدر ما يعمل بأوامر الله ويقف عن نواهيه ولا يجب عليه من علم الشريعة سوى ذلك ، وأما غير علم الشريعة فيكفيه أن يتعلم القدر الذى به خلاصه ونجاته .

٥ – أن يكون له مرشد ومرب ليدله على الطريق ويرفع عنه

الأخلاق المذمومة ويضع مكانها الأخلاق المحمودة . . إنه لابد من مرشد مرب البته ، لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا دليلا لهم ، ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم ، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين خلفاء عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله وهكذا إلى يوم القيامة . فالسالك لا يستغنى عن المرشد البته .

٦ – مخالفة سياسة النفس ، وهذا لا يتيسر إلا بترك جلساء السوء ، لتقصر عنه يد تصرف شياطين الأنس والجن ، وترفع عنه التلوثات الشيطانية .

٧ – اختيار جميع أحوال الفقراء لأن أصل هذا الطريق فراغ القلب من حب الدنيا ، فإذا لم تختر جميع أحوال الفقراء ، وجدت فى القلب الأسباب الدنيوية .

يقول السهرودى (أبو حفص) : المريد الصادق إذا دخل تحت حكمة الشيخ وصحبه وتأدب بآداب يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج وكلام الشيخ يلقح باطن المريد ويكون مقام الشيخ مستودع الحال ، وينتقل من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وسماع المقال .

ويقول أبو زيد البسطامى : " من لم يكن له أستاذ فأستاذه الشيطان " . (١)

---

(١) عوارف المعارف ص ٢٠١ .

ب – واجبات المريد نحو شيخه والشيخ نحو مريده :

للصوفية أداب فى الطريق تحدد العلاقة بين الشيخ والمريدين ، وتعين واجبات كل منهم ، وقد تختلف هذه الأداب والواجبات باختلاف المشايخ والطرق فى مسائل تفصيلية ولكنها تتفق مع الأمور الأساسية الجوهرية التى بدونها يضل السالك الطريق إلى الله .

أولاً : واجبات المريد :

الواجب الأول : على المريد نحو أستاذه الطاعة المطلقة فى كل ما يأمربه حتى ولو خيل للمريد أنه مأمور بشرع يخالف الشرع مع استحالة ذلك .

الواجب الثانى : أن يحفظ المريد سره إلا على شيخه وأن يبوح له بكل عمل يعمله أو خاطر يخطر بباله .

يقول القشيرى : " لو كتم نفسا من أنفاسه عن شيخه فقد خانه فى صحبته ، ولو وقعت له مخالفة غير مقصودة فيما أشار إليه شيخه يجب أن يبادر بالإقرار بها بين يدى الشيخ ، ويتعين ما يقرره عليه من عقوبة . [١]

الواجب الثالث : يقول القشيرى نقلا عن أستاذه أبى على الدقاق : يجب أن يكون صحيح الاعتقاد بينه وبين الله تعالى صاف الظنون والشبه خال من الضلال والبدع ، صادر عن البراهين

---

(١) الرسالة القشيرية ج١ .

والحجج ، ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة إلا نتيجة جهلهم بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فإن هؤلاء حجتهم فى مسائلهم أظهر من حجج كل واحد وقواعد مذاهبهم أقوى من قواعد كل مذهب . (١)

الواجب الرابع : ينبغى على المريد أن يكون مقلدًا لشيوخه وأسلاف طريقته أن كان يريد الدخول فى المذهب . . والمريد الذى له إيمان أن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقصدهم فهو يساهم فيما خصوا به من مكاشفات الغيب فلا يحتاج إلى التطفل على من هم خارج عن هذه الطائفة ، وإن كان يريد طريقة الاتباع وليس بمستقل بحاله ويريد أن يعرج فى أوطان التقليد إلى أن يصل إلى التحقيق فليقلد سلفه وليجر على طريقة هذه الطبقة فإنهم أولى به من غيرهم . (٢)

الواجب الخامس : ويحدده القشيرى في أنه لا ينبغى على المريد أن يتسرع فى تخطى مراحل الطريق وبالتالى فإنه ينبغى عليه التدرج فى المراتب على ترتبها فلا يرتقى إلى مرتبة إلا إذا أتم المرتبة السابقةلها حيث يرمز القشيرى إلى الطريق الذى سلكه المريد بالسفر فيقول : ينبغى على المريد أن لا يسافر قبل أن تقبله الطريق ، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب فإن السفر للمريد فى غير وقته سم قاتل ،

---

(١) الرسالة القشيرية ج ١ .

(٢) المصدر السابق نفسه .

ولا يصل أحد منهم إلى ماكان يرجى له إذا سافر فى غير وقته ، وإذا أراد الله بمريد خيرا ثبته فى أول إرادته ، وإذا أراد الله بمريد شرا رده إلى ما خرج عنه من مرضه أو حالته وإذا أراد الله بمريد محنة شرده فى مطارح غربته هذا إذا كان المريد يصلح للوصول .

أما واجبات الشيخ فتتمثل فيما يلى :

أن علاقة الشيخ بمريده تعتبر القسم الثانى من أقسام الصحبة التى يوردها القشيرى فهى علاقة بالتابع أى علاقة الأعلى بالأدنى وهى تتسم من قبل من هو أعلى تجاه إلى الأدنى :

١ – بالشفقة .

٢ – الرحمة .

٣ – التعهد .

٤ – الإرشاد .

٥ – المراقبة الدقيقة .

٦ – محاسبة المريد .

٧ – تصحيح أوضاع ونقد وتعليم وتبصير بأسرار الحياة الروحية وهى أيضا محبة وإشفاق وأخذ بالصرامة والعنف حيث يجب الصرامة أو العنف وهى من جانب المريد طاعة وحب وتفويض وفناء فى شخصية الشيخ المرشد . [1]

---

(١) التصوف الثورة الروحية ص ٢٦٦ د . أبو العلا عفيفى .

٨ – كما يجب على الشيخ أن يكون متفقها فى العلم يقول الجنيد : لو علمت أن لله علما تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه ولقصدته . (١)

٩ – ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين لأن ذلك تضييع لحقوق الله تعالى ومالم يتجرد المريد من كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنه شيئا من الأذكار بل يجب أن يقدم التجربة له ، فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله فى هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء .

١٠ – والواجب على الشيخ نحو مريده كذلك أن رأى فيه كياسة أن يجبله على الحجج العقلية فإنه بالتعلم يتخلص لا محالة المتعرف مما يعتريه من الوساوس .

١١ – وأن يغرس شيخه فيه القوة والثبات فى الطريقة آمرا له بالصبر واستدامة الذكر كى تسطع فى قلبه أنوار القبول وتطلع فى سراه شموس الوصول وعن قريب يكون ذلك .

ج – كيفية الدخول فى الفرقة :

هناك مجموعة من المراسم ينبغى على المريد اتباعها من أجل الدخول للفرقة ، والمشايخ لهم وحدهم الحق أن يأذنوا للمريدين الذين تم استعدادهم بأن يأخذوا عهد الطاعة لهم وهو عهد كانوا يطالبون به كل من أراد الدخول فى طريقهم .

---

(١) الرسالة ج٢ ص ٧٣٥ .

أما المدة التى يقضيها المريد قبل أن يؤذن له بالعهد فهى ثلاث سنوات يصفها الهجويرى على النحو الآتى :

يقضى المريد السنة الولى فى خدمة القوم (الصوفية) والثانية فى خدمة الله ، والثالثة فى مراقبة قلبه ، ولا يقوم بواجبه نحو القوم حتى يقف منهم موقف العبد من سيده فيؤثرهم جميعا على نفسه ويعتبرهم خيرا منه ، ويعد من واجبه خدمة الكل على السواء ولا يكون فى خدمة الله حتى يجرد نفسه عن كل رغبة تتصل بالدنيا أو بالآخرة ، ويعبد الله لذاته ولا يراقب قلبه حتى يحصر جميع همه فيما أقبل عليه ويترك كل ما شغل باله حتى لا تتطرق الغفلة إلى قلبه فى حال مناجاته مع الله .

مسألة الخرافة :

وإذا ما أخذ المريد العهد خلع عليه شيخه الخرقة أو المرقعة [١] وهى لباس مصنوع من قطع مختلفة من القماش حل فيما بعد محل لباس الصوف الذى كان يلبسه أوائل الصوفية وليس خلع المريد الخرق علامه على قبوله فى الطريق ولكن قد يخلع على الصوفى خرقتان مختلفتان كما حدث لأبى سعيد ابن أبى الخير . [٢]

أن الخرقة ترمز إلى أخذ مريد عن شيخه والمعنى الملحوظ فى

---

(١) هذا الرمز كان مثار نقد لمدى بعض الصوفية أنفسهم وهى مسائل شكلية ليست فى صميم التصوف .

(٢) عوارف المعارف ص ٧٩ .

خلع الخرقة على المريدين أن يد الشيخ تنوب عن يد النبى ﷺ لأن تسليم المريد للشيخ تسليم لله ورسوله وهم يسمون الزمن الذى يمضيه المريد فى صحبة الشيخ وتحت رعايته زمن (الارتضاع) والشيخ يعلم متى يحين أوان الفطام للمريد فلا ينبغى للمريد أن يفارق الشيخ حتى يأذن له .

وقد رأى الصوفية لكل طائفة لباسًا خاصًا يميزها كالسواد للعباسيين والخضرة للعلويين وهكذا .

د – مراتب الصوفية :

هناك مراتب مختلفة يترقى خلالها الصوفى الذى بلغ شوطًا عظيمًا فى الطريق سالكًا من خلاله مقامات وأحوال فإذا اجتاز صحيح المقامات انتقل إلى مرتبة روحية أعلى .

والصوفى إذا بلغ شوطًا عظيمًا فى هذا الطريق يترقى بداية من :

١ – القطب .

٢ – الإبدال .

٣ – الأوتاد .

٤ – النقباء .(١)

(١) نظرية الإمامه بين الشيعة والصوفية ص ١١٢ .

** **أما الأبدال** : فهم سبعة وهم البدَّال لا يزيدون - كما يقول ابن عربى - ولا ينقصون ، يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل منهم أقليم فيه ولايته .

وسموا أبدالا لكونهم إذا فارقوا موضعا ويريدون أن يخلفوا به بدلا منهم فى ذلك الموضع لأمر فيه مصلحة وقربة يتركون به شخصا على صورتهم .

** **أما الأوتاد** : فهم أربعة لا خامس لهم ، وهم أخص من الأبدال ، وهم على منازل لأركان العالم ، والعالم شرق وغرب وشمال وجنوب .

** **أما النقباء** : فهم اثنى عشر نقيبًا لا يزيدون ولا ينقصون ، وهم على عدد البروج الأثنى عشر .

** **أما القطب** : فهو فرد واحد فى زمانه ، وبهذا يكون الترتيب يأخذ شكلاً هرميًا يبدأ من القطب ، وينزل إلى الإبدال ثم الأوتاد ثم النقباء ثم الركبان ثم الملاماتية .

هذه هى المراتب الصوفية التى يتدرجون فيها المرتبة تلو الأخرى ، وأولئك هم الواصلون الذين يمكن أن نطلق عليهم الأولياء كما يقول ابن عربى فى كتابه الفتوحات المكية . [1]

---

(١) انظر لذلك نظرية الأمامه ص ١١٥..

هـ – الولاية والولى :

والولاية هى : قيام العبد بالحق عند الفناء عن نفسه وذلك بتولى الحق إياه حتى يبلغه غاية مقام القرب والتمكين . [١]

والولى : من تولى الحق أمره ، وحفظه من العصيان ولم يخله ونفسه بالخذلان حتى يبلغه فى الجمال مبلغ الرجال . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ الأعراف : ١٩٦ .

والله سبحانه ولى العبد يتولاه بحفظه وعنايته ورعايته ولطفه . قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ البقرة : ٢٥٧ .

والعبد ولى الله يطيعه ويوحده ولا يبعد عن عبادته قال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ يونس : ٦٢ .

والولاية تعنى القرب فالله قريب من العبد المتولى ، والعبد قريب من منهج الله وعبادته وطاعته .

ومن هنا كان الولى هو المواظب على عبادة مولاه ، فالعبد والى الله بالطاعة فوالاه الله باللطف والإكرام . وشرطا الولاية كما ذكر القرآن هما :

١ – الإيمان .

٢ – التقوى .

---

(١) معجم اصطلاحات الصوفية للكاشانى ص ٧٩ .

قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ يونس : ٦٣ .

وفى الحديث القدسى : " من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلىَّ عبد بشئ أحب إلىَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل بعد الفرائض حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه . . . " رواه البخارى .

ومعناه : أن الله يسدد الولى فى سمعه وبصره ويده ورجله فيحدث من الله أكرام للعبد بحيث أنه قد يرى ما لا يراه غيره ، ويسمع ما لا يسمعه غيره ، ويقوى على ما لا يقوى عليه غيره . وهذه ثمار الإيمان والتقوى .



عن عمر بن الخطاب ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : " إن من عباد الله لأناساً ماهم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله ﷻ . فقال رجل : من هم وما أعمالهم ؟ لعلنا نحبهم . قال : قوم يتحابون بروح الله ﷻ من غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها بينهم ، والله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس " ثم قرأ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

❁ ❁ ❁

المبحث الرابع

الطرق الصوفية

الطرق الصوفية

التصوف الإسلامى ينقسم إلى نظرى وعملى .

والطرق الصوفية تمثل القسم العملى الذى يعد ظاهرًا ، وهذا لا يعنى أن أصحاب الطرق الصوفية قد تخلوا عن الجانب النظرى بل أن هذه الطرق تعد امتداداً للجانب النظرى .

فالغزالى والجيلانى والرفاعى والشاذلى وغيرهم كانوا بجانب كونهم علماء فى الفكر الإسلامى يتعهدون تلاميذهم بالتربية الروحية ، وقد تخرج من تلك المدارس علماء صالحون وزعماء ناجحون .

كل ذلك قبل أن تظهر تلك الانحرافات فى السلوك بعد ظهور المشايخ الدجالين والكسلاء المتواكلين الذين هم أدعياء على التصوف.

ولقد وضع مشايخ الطرق الصوفية ضوابط لكيفية الانتساب إلى هذه الطرق وحددوا ملامح للطرق الصوفية .

كيفية الانتساب إلى الطرق الصوفية :

الانتساب إلى الطرق الصوفية ينقسم إلى أربعة أقسام :

الأول : أخذ المصافحة والتلقين للذكر ولبس الخرقة .

الثانى : أخذ رواية ، وهو قراءة كتبهم من حل لمعانيها وهو يكون للتبرك أو للنسبة أيضا .

الثالث : أخذ دراية وهو حل كتبهم لإدراك معانيها .

الرابع : أخذ تدريب وتهذيب وتـرق فـى الخدمـة بالمجاهـدة للمشاهدة والفناء فى التوحيد ، والبقاء وهو المراد العزيز وجوده وهو المعول لأكثر الطرق .

ويصح الانتساب أيضا بالاتباع والمشاركة ولو فى شئ يسير مع المحبة لهم كتلاوة حزب من أحزابهم ، ولذا قال الشاذلى : " من قـرأ حزبنا هذا فله مالنا ، وعليه ما علينا " .

مراسم الطريقة ونظمه :

للطريق مراسم ينتقل المريد من مرسم إلى آخر حتى يصل إلى الخلافة :

١ – نقيب للخدم .

٢ – نقيب للقهوة .

٣ – نقيب للطعام .

٤ – نقيب لمجلس الذكر .

٥ – نقيب للسجاده .

٦ – نقيب للشيخ .

٧ – الخلافة .

أول ما بدأ به المريد حياته الصوفية أن يكون نقيبا للخدم الأحذية يتولى حراستها للذاكرين ، ثم نقيبا للقهوة ويزاول عملها وسقيها ، ثـم نقيبا للطعام يعمل بيده فى طهيه ، ويحمله إلى الآكلين ، ويصب علـى أيديهم الماء بعد أن يفرغوا منه ، ثم نقيبا لمجلس الذكر يفتتحه وفـق

أصوله قعودًا وقيامًا ، ويختتمه فى النهاية على حسب ما تقتضيه روح الطريقة من نظم ، ثم نقيبا للسجاده يحملها فى المواكب ويقف خلفهـــا بعصاه عند قيام الحضرات ، ثم نقيباً للشيخ يتولى بنفسه خدمتـــه فـــى طعامه وشرابه ، ثم أذن منه بعدئذ ، وتلك هى مرتبة الخلافـــة عنـــد الصوفية ، ومن ثم يدعى إلى الخلوة حتى يستكمل النهـــوض بتعـــاليم الطريق جميعا ، فإن الخلوة واجب لا يعزب أحد الخلفاء عن أدائـــه ، وأنه لا يدهشك أن تعلم بأن حلقاتها لا تتم إلا فى سنوات ثلاث فيختلى الإنسان فى العام الأول أربعين يوما ويختلى فى الثانى أحد عشر يوما ويكتفى فى العام الثالث بثلاثة أيام .

التنظيمات الإدارية للطرق الصوفية :

أول خانقاه (مكان للعبادة) أسس فى مصر الذى بنـــاه صـــلاح الدين الأيوبى ، ويعد هذا العمل أول تنظيم إدارى للطرق الصوفية .

وأن أهم العصور التى اهتمت بالتنظيمـــات الإداريـــة للطـــرق الصوفية فى مصر هو العصر المملوكى ، حيث انتظمت فيه الصوفية فى جماعات مرتبة داخل الخانقاوات التى انشئت بكثرة فى هذا العهد .

ومن مظاهر تنظيم الصوفية فى العصر المملوكى كيفيـــة تقـــديم المريد للجماعة ثم وصوله إلى درجة النقابة .

ثم تحدثه مع أتباعه ومريديه واتصاله بهم ، ثم اتـــصال الـــشيخ بالجميع حتى يسهل عليه بث ما يريده من تعاليم وتلقين مـــايراه مـــن أوامر وأحيط ذلك كله بسياج طاعة الشيخ .

وتطورت بعد ذلك التنظيمات الإدارية للطـــرق الـــصوفية فـــى العصور التالية ، من أهمها أنه أصبح للطرق الصوفية منذ القرن ١٩ الميلادى أو قبله بقليل : مشيخة عامة ، لصاحبها التكلم عـــن جميـــع الطرق ، وأصبح لكل طريقة شيخ ، ولكل شيخ خلفـــاء مـــن القـــرى ونواب فى المراكز والمديريات لكل خليفة مريدين ، والشيخ يدبر أمر الخلفاء ، والخليفة آمر للمريدين من حيث إرشادهم ومراقبتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وعرف رئيس الصوفية بـــشيخ مـــشايخ الطرق الصوفية .

حتى أصبحنا نجد فى العصر الحديث أن شيخ مـــشايخ الطـــرق الصوفية يعين بقرار من رئيس الدولة .



الملامح العامة للطرق الصوفية

للطرق الصوفية ملامح عامة :

١ – شيخ .

٢ – مريد .

٣ – عهد بين الشيخ والمريد .

الشيخ :

هو بمثابة الأستاذ للمريد ، فالمريد كالطالب والطالب لا يستطيع أن يتقدم فى دروسه بدون موجة ومرشد ، لا يستطيع الفرد فى نظـر الصوفية أن يسلك هذا الطريق بمفرده ، لأنه طريق صعب متـشعب المسالك كثير المنحنيات ، ملئ بالصعاب ويتربص بسالكه أعداء أشداء فى حاجة إلى جهاد ، ومن هؤلاء الأعداء : الشيطان والنفس والهـوى لذلك لابد لمن يسلك هذا الطريق الصعب من مرشد أو هاد يأخذ بيـده هو الشيخ .

فالشيخ هو الذى يحدد لمريده طريق الوصول إلى الله ، ويساعده على السير ، والشيخ السالك هو الذى سلك الطريق علـى يـد شـيخ واصل فترقى فى المقامات من مقام التوبة إلى مقام المشاهدة . . . ثم عاد بعد اعتلاء تلك المقامات ليقيم الشريعة ويسلك الناس فى مراحـل الطريقة ، ويفتح لهم بإذن الله تعالى أبوابا ونوافذ يشرفون منها علـى أضواء الحقيقة .

والسالك بلا دليل لن يصل فهو كشجرة نبتت بنفسها عند الأستاذ أبى على الدقاق قال : " الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس فإنها تورق ولكن لا تثمر " ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخــذ منــه طريقا نفسا نفسا فهو عابد هواه لايجد نفاذا ويجوز أن يقــول قائــل : هناك أشجار فى الغابات نبتت بنفسها وقد أثمرت .

هذا صحيح وواقع حقا ، ولكن لا يكون لفاكهتهــا طعــم فاكهــة البساتين . والغرس إذا نقل من موضع إلى موضع آخر يكــون أكثــر حالا ، وأكثر ثمره لدخول التصرف فيه .

فالمريد لابد له من شيخ فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا ، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان الذى يقود مريديه إلى الجحيم .

فالمريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتأدب بآدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشئ يلقح باطن المريد ، ويكون مقال الشيخ مــستودع نفــائس الحال ، وينتقل الحال من الشيخ إلى المريد بواسطة الصحبة وســماع المقال ، ولا يكون هذا إلا لمن حضر مع الشيخ ، وانسلخ مــن إرادة نفسه وفنى فى الشيخ بترك اختيار نفسه .

فبالتأليف الإلهى يصير بين الــصاحب والمــصحوب امتــزاج وارتباط بالنسبة الروحية والطهارة الفطرية ، ثم لا يزال المريد مــع الشيخ كذلك متأدبًا بترك الاختيار حتى يرتقى من ترك الاختيــار مــع

الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله تعالى [1] ، ويفهم من الله كما كـــان يفهم من الشيخ ، ومبدأ هذا الخير كله الصحبة والملازمة للشيوخ بهذا اتضحت مكانة الشئ المرشد الكريمة فى طريق المريد إلى الله تعالى .

مكانة الشيخ ورتبته فى الطرق الصوفية :

ورتبة المشيخة من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ونيابة النبوة فى الدعاء إلى الله .

هذه المرتبة العظيمة ينالها الصوفية لأنهم دائما يحببون الله إلى عباده ، لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله ﷺ ، ومن صح اقتداؤه وأتباعه أحبه الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٣١) .

بالإضافة إلى ذلك فإن الصوفية يحببون عباد الله إلى الله تعالى لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب ، وانعكست فيه أنوار العظمة الإلهية ولاح فيه مجال التوحيد وانجزيت أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ، ورؤية الكمال الأزلى ، فأحب العبد ربه لا محالة ، وذلك ميراث التزكية قال الله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ (الشمس : ٩) ، وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى .

---

(١) هذه نقطة خلاف كبرى بين أهل الشريعة وأصحاب هذا الفكر من الصوفية .

الشروط والمواصفات المطلوبة فى الشيخ :

ذكر الإمام الجنيد رحمه الله تعالى " أنه لا يستحق أن يكون شيخا حتى يأخذ حظه من كل علم شرعى ، وأن يتورع عن جميع المحارم وأن يزهد فى الدنيا ، وألا يشرع فى مداواة غيره إلا بعد فراغه من مداواة نفسه ، وحتى يكون على علم يهدى به العباد ، فإذا مرض مريده بسبب شبهة فى علم التوحيد داواه ، وإذا تحير فى مسألة من مسائل الفقه أفتاه ، ويشترط أن يكون لديه القناعة بالغنى عن النفس ، وأن يخاف ويخشى من المعاصى والأدناس ، وأن يلازم العمل بالكتاب والسنة . . وإياك ومتابعة من لم يكن على غير هذه الصفات فإنه من جنود الشيطان ثم زن أقواله وأفعاله بميزان الشريعة والطريقة ، فإن رأيت منه شيئا مخالفا للشرع فاتركه حتى وإن كان ذا حال صحيح فما عليك في رده بحكم الشرع من بأس ولا تتخذه مرشدا ".

وذكر الإمام الغزالى رحمه الله تعالى شروط الشيخ فقال : " وشرط المرشد أن يكون عالما ، لكن ليس كل عالم يصلح للإرشاد ، بل لابد أن يكون عالما له أهلية الإرشاد ، ولهذا المرشد علامات ونحن نذكر . . بطريق الإجمال حتى لا يدعى الإرشاد كل متحير .

فالمرشد هو الذى يكون قد خرج من باطنه حب المال والجاه ، وتأسس بنيان تربيته على يد مرشد كذلك وهلم حتى تنتهى السلسلة إلى النبى ﷺ ، وذاق بعض الرياضيات كقلة الأكل والكلام والنوم وكثرة الصلاة والصدقة والصوم ، واقتبس نورًا من أنوار سيدنا محمد ﷺ ،

واشتهر بالسيرة الحسنة والأخلاق المحمودة من صبر وشكر وتوكل ويقين وطمأنينة وشجاع وأمانة وحلم وتواضع ومعرفة وصدق ووقار وحياء وسكون وتأن وأمثالها .

وتطهر من الأخلاق الذميمة كالكبر والبخل والحسد ، والحقد والحرص والأمل الطويل والطيش ونحوها ، وسلم من تعصب المتعصبين ، واستغنى عن علم المتكلفين بالعلم المتلقى عن رسول الله ﷺ " .

فالاقتداء بمثل هذا المرشد هو عين الصواب ، والظفر بمثله نادر لاسيما فى هذا الزمان ، فإنه كثير فيه من يدعى الإرشاد وهو فى الحقيقة يدعو الناس إلى اللهو والغو ، بل أدعى كثير من الملحدين الإرشاد بمخالفة الشريعة وبسبب غلبة هؤلاء المدعين اختفى المرشدون الحقيقيون فى أركان الزوايا وبما ذكرناه علم بعض علامات المرشد الحقيقى حتى أنه من وجد متخلقا بها علم أنه من المرشدين ، ومن لم يكن متخلقا بها علم أنه من المدعين فإن تحصل أحد على مثل هذا المرشد (الحقيقى) وقبله المرشد وجب عليه احترامه .

ويبدو من الشروط والمواصفات المذكورة أن الوصول إلى مقام الشيخ المرشد ليس سهلا فالذى توجد عنده هذه الشروط والمواصفات يستحق بلا جدال الاقتداء به ، ولا يجوز التخلى عنه وعلى ذلك نجد أن الشيخ لا يقتصر على لبس الزى والهيبة أو إرخاء العزبة وحضور

الولائم ، وتقول له نفسه من حيث حصل لك الاقتداء والتلامذه أنت بخير كبير وكلما كثر أتباعه ومقتدوه اغتر وحمد الله ، وكلما قلوا انقبض واغتنم وسخط فى الباطن على الله بل لا ينبغى الالتفات لهذه الأمور بوجه من الوجوه ، فشأن الفقير دوام الإقبال على الله باطنًا وظاهرًا بأنواع القربات والعبادات والشيخ من أفقر خلق الله إليه .



العهد

العهد فى اللغة :

من عهد فلان إلى فلان يعهد عهدًا ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه .

ويقال عهد إليه بالأمر ، وفيه : أوصاه به .

قال الجرجانى : العهد حفظ الشئ ومراعاته حالا بعد حال هذا ، ثم استعمل فى المواثق الذى يلزم مراعاتها وهو كما قال سبحانه ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ ﴾ (يس : ٦٠) .

العهد قسمان : حسى ومعنوى .

فالعهد الحسى : المنزل الذى لا يزال القوم إذا انتأوا عنه يرجعون إليه ، ومنه العهد : الإلمام والتقاء ، تقول : هو قريب العهد ومنه العهد بمعنى الزمان ، وتعهد الشئ وتعاهده : جدد العهد به ووعاه ، وعهد الشئ كعلم عرفه على حال فالشئ معهود .

والعهد المعنوى : الاحتفاظ بالشئ وأحداث العهد به ، عهد إليه بكذا وفى كذا : أوصى ، والعهد : هو الموثق والأمان ، وما يكتب للولاه ، وأمان أهل الذمة أو المحاربين فهم أهل العهدوالمعاهدون ، وعهد الله فى استعمال القرآن يرجع فى جملته إلى معنى الحفظ ، فهو الموثق الذى تجب مراعاته والأمان . . . إلخ .

وإضافة المصدر فيه للفاعل على معنى ما أمر الله به خلقه عامه ،

كقوله تعالى : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ (البقرة : ٢٧) أو ما أمر به بعض خلقه كهداية الناس وقيادتهم فى قوله : ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ١٢٤) .

وأما إضافة المصدر للمفعول فالمراد ما ألزم به الإنسان نفسه أمام الله تعالى .

ولقد ورد لفظ العهد فى القرآن مرات مثل : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ ، واللفظ فى الآية ٧٧ من سورة آل عمران ، ١٥٢ من سورة ال،عام ، ١٠٢ من سورة العراف ، وفى الآية ٧ من سورة التوبة ، ٢٠ ، ٢٥ من سورة الرعد ، ٩١ ، ٩٥ من سورة النحل ، ١٥ من سورة الأحزاب .

وورد أيضا لفظ عاهد فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾ (التوبة : ٩) وللفظ فى الآية ١٠ من سورة الفتح ، وجاء بصيغة عاهدت فى الآية ٥٦ من سورة الأنفال ، وعهدتم فى ١ ، ٤ ، ٧ من سورة التوبة ، واللفظ فى الآية ٩١ من سورة النحل <

وعاهدوا : ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة : ١٠٠) ، واللفظ فى نفس السورة الآية ١٧٧ وفى ١٥ ، ٢٣ من سورة الأحزاب .

وهذه المعانى المذكورة نجدها عند الصوفية فإن العهد عندهم فى

حقيقته القرار والإقرار من المريد الجديد لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ أمام الشيخ المرشد ، فهو إلزام المريد نفسه للطاعة وترك المعاصى ظاهرة وباطنه فهو رباط وثيق بين المريد والشيخ ، بل هو أوثق رباط بين الرجلين تحابا فى الله وتعاهدا على طاعته أنه بيعة الله وفى الله وبالله .

وتأتى كلمة البيعة بمعنى العهد فى هذا الموضوع وإذا اتفق الطرفان فى المطلوب تعاهدا وتعاقدا وتبايعا ، وكذلك المريد إذا رغب فى الطريقة ووافق الشيخ على رغبته فإن على المريد أن يأخذ عهدا عند الشيخ ، وللشيخ أن يقبل هذا المريد بعد أن رأى رغبته الشديدة فى السير على طريقة الشيخ وبذلك حصل العهد والمبايعة بينهما .

وأخذ العهد للمريد من الشيخ هو فى الخطوة الثانية فى خطوات المريد ، لأن الخطوات ثلاث :

الأولى : التوبة .

الثانية : أخذ العهد من الشيخ بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والسير فى الطريق .

الثالثة : التلقين وهو تعليم الشيخ للمريد كيفية الذكر نطقا وبدءًا فى مراحله الأولى ، ويتجدد التلقين كلما قطع المريد مرحلة من مراحل القرب من الله ﷻ ولأخذ العهد صور وكيفيات فلكل طريقة صورتها وكيفيتها فى أخذ العهد للمريد من الشيخ .

ومهما تعددت صور وكيفيات أخذ العهود لكل طريقة إلا أنها تتفق فى أن واجب المريد الذى يرغب فى أخذ العهد عن الشيخ ينبغى على هذا الشيخ أن يأمره بالتطهير من الحدث والخبث ليتهيأ لقبول مايلقيه عليه ويتوجه إلى الله تعالى ، ويسأله تعالى القبول للمريد ويتوسل إليه فى ذلك بمحمد ﷺ لأنه الواسطة بينه وبين خلقه [١] ويضع يده اليمنى على يده اليمنى . . . ثم يقول المريد بعض سور القرآن وآيات المواثيق والعهود ، ويقول المريد مثلما يقول له شيخه ثم يقول الشيخ لمريده : قل اللهم أنى أشهدك وأشهد ملائكتك وأنبيائك ورسلك وأوليائك أنى قبلته شيخا لى فى الله ومرشدا وداعيا . . ثم يقول الشيخ : اللهم أنى أشهدك أننى قد قبلته ولدا فى الله تعالى فاقبله وأقبل عليه وكن له ولا تكن عليه ، وانظر غايتك إليه .

وبعد العهد على المريد حفظ عهوده ولا ينقضها قال القشيرى ﵁ : ومن شأن المريد حفظ عهوده مع الله تعالى فإن نقض العهد فى طريق الإرادة كالردة عن الدين لأهل الظاهر .

❁ ❁ ❁

---

(١) هذه إشكالية أخرى بين أهل الشريعة وبين من يسلكون هذا النهج من الصوفية . فالله يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ البقرة : ١٨٦ .

خصائص الطرق الصوفية

من أهم خصائص الطرق الصوفية :

١ – ليس الخرقة .

٢ – الذكر .

٣ – السماع .

٤ – الموالد .

أولاً : الخرقة :

والخرقة في اللغة : هى القطعة من الثوب الممزق وجمعها خرق .

وعند الصوفية : الخرقة لها مكانة خاصة واعتبروها ارتباطا بين الشيخ والمريد لأنها تدل على التفويض والتسليم من المريد إلى الشيخ ، والدخول فى حكم الطاعة ففى الخرقة معنى المبايعة وهى عتبة الدخول فى الصحبة التى بها يرجى للمريد كل خير .

قال السهروردى (١) : لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد وتحكيم من المريد للشيخ فى نفسه والتحكيم سائغ فى الشرع لمصالح دنيوية فبما ينكر المنكر للبس الخرقة على طالب حاذق فى طلبه يقصد شيخا بحسن ظن وعقيد يحكمه فى نفسه لصالح دينه يرشده ويهديه . ويعرفه طريق المواجيد ويبصره بآفات النفوس وفساد

(١) عوارف المعارف ص ٤٢ .

الأعمال ومداخل العدو فيسلم نفسه إليه ويستسلم لرأيه واستصوابه فى جميع تصاريفه فيلبسه الخرقة إظهار للتصوف فيه فيكون لبس الخرقة علامة التفويض والتسليم ودخوله فى حكم الشيخ دخوله فى حكم الله ، وحكم رسوله وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ .

ففى الخرقة معنى المبايعة والخرقة عتبة الدخول فى الصحبة ، والمقصود الكلى هو الصحبة وبالصحبة يرجى للمريد كل خير .

ويد الشيخ فى لبس الخرقة تنوب عن يد رسول الله ﷺ وتسليم المريد له تسليم لله ورسوله قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ (الفتح : ١٠) . ويأخذ الشيخ على المريد عهد الوفاء بشرائط الخرقة ويعرفه حقوق الخرقة .

فالشيخ للمريد صورة يستشف المريد من وراء هذه الصورة المطالبات الإلهية والمراضى النبوية .

وإذا أراد الشيخ أن يلبس المريد الخرقة فليتطهر ويأمره بالتطهير ثم توضع الخرقة بين أيديهما ويقرأ الفاتحة ويلبسها الشيخ بيده للمريد قاصدًا بذلك الإنابة عن الله تعالى ورسوله ثم يذكر له نيتها كأن يقول : البسكها كما ألبسنى إياها شيخى فلان إلى آخر .[١]

تنقسم الخرقة إلى قسمين :

القسم الأول : خرقة الإرادة . **القسم الثانى** : خرقة التبرك .

---

(١) كتاب الطرق الصوفية للمهدلى ص ٦٨ .

خرقة التبرك :

والأصل الذى قصده المشايخ للمريدين خرقة الإرادة ، وخرقة التبرك تشبُّه بخرقة الإرادة ، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقى وخرقة التبرك للمتشبه ومن تشبه بقوم فهو منهم .

وسر الخرقة أن الطالب الصادق إذا دخل فى صحبة الشيخ وسلم نفسه وصار كالولد الصغير مع الوالد يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار وحسن الاستقامة .

ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن وتتبع الاستعدادات ولتنوع الاستعدادات تنوعت مراتب الدعوة قال الله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل : ١٢٥). فالحكمة رتبة فى الدعوة والموعظة كذلك والمجادلة كذلك فمن يدعى بالحكمة لا يدعى بالموعظة ، ومن يدعى بالموعظة لا تصلح دعوته بالحكمة .

فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار ومن هو على وضع المقربين ، ومن يصلح لدوام الذكر ومن يصلح لدوام الصلاة ، ومن له هوى فى التخشن أو فى التنعم ، فيخلع المريد من عادته ويخرجه من هوى نفسه ويطعمه باختياره ويلبسه باختياره ثوبا يصلح له وهيئة تصلح له ويداوى بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة داء هواه ويتوخى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه . (١)

---

(١) انظر السهروردى فى كتابه عوارف المعارف ص ٥٦ .

فأما خرقة التبرك :

فيطلبها مَنْ مقصوده التبرك بزى القوم ، ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشرع ومخالطة هذه الطائفة لتعود عليه بركتهم ويتأدب بآدابهم فسوف يرقيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة ، فعلى هذا خرقة التبرك مبذولة لكل طالب وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب . وليس جميع الصوفية يلبسون الخرقة ويلبسونها مريديهم فمن المشايخ من لا يلبس الخرقة ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة ويؤخذ منه العلوم والآداب .

وقد كان طبقة من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدين فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأهل من السنة [1] ، واصل وشاهد من الشرع ، ومن لا يلبسها فله رأيه وله فى ذلك مقصد صحيح وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد ، ولا تخلو عن نية صالحة فيه . [2] ولباس الخرقة معروف عند الصحابة رضى الله عنهم ، وخاصة عند الخليفة عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب وغيرهما رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وللصوفية اقتداء بهم والاقتداء بهم شرعى كما ورد فى الخبر الصحيح قوله ﷺ : " فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء المهدين الراشدين فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجز " . [3]

---

(١) لم يرد فيما أعلم نص صحيح فى مسألة الخرقة التى يلبسها هؤلاء الصوفية .
(٢) انظر السهروردى فى كتابه عوارف المعارف ص ٥٦ .
(٣) سنن أبى داود ج٤ ص ٢٠١ .

المبحث الخامس

موقف الفقهاء من التصوف

موقف الفقهاء من التصوف

موقف لإمام أبى حنيفة من التصوف :

عاش الإمام أبو حنيفة – رحمه الله – فى عهدى الدولة الأموية والعباسية ، وشهد ماكان فى تلك الفترة من أحداث وشاهد أيضا المساجلات التى كانت بين الفرق الإسلامية وخالط جماعة من الفقهاء والزهاد . وكان العراق موطناً لكل تلك الفرق والمذاهب .

وإذا كان الأمام أبو حنيفة قد ولد فى عام ٨٠ هـ فإنه لم يشهد من التصوف إلا البواكير الأولى والتى اتفق على تسميتها بالزهد وعلى أصحابها بالزهاد .

والمتأمل فيما نقل عن الأمام أبى حنيفة يجد أن الرجل كانَ صوفياً خالصاً وإن لم يطلق عليه صوفى .

وتلاميذ الأمام أغلبهم رموز التصوف من أمثال عبد الله بن المبارك (ت ١٨١ هـ) وداود الطائى (ت ١٦٥ هـ) الفضيل عياض (ت ١٨٧ هـ) وشقيق البلخى (ت ١٩٤ هـ) وغيرهم كثير .

وقد روى الموفق المكى بسنده عن بكير بن معروف – صاحب أبى حنيفة – قال : كنت بطانة أبى حنيفة فى السفر والحضر ، وأشهده فى الليالى فى منزله فما رأيت أحداً أكثر اجتهاداً منه صائماً بالنهار ، قائماً بالليل ، تالياً لبيان الله ، خاشعاً دائباً في طاعة الله .

وقال أبو مقاتل صحبت أبا حنيفة الصحبة الطويلة في حضره وسفره فما رأيت أحداً أكثر صلاة منه ولا أعبد ولا أورع منه . [١]

وقد قابل أبو حنيفة إبراهيم بن أدهم وقال له ذات مرة يا إبراهيم إنك رزقت من العبادة شيئاً صالحاً فليكن العلم من بالك فإنه رأس العبادة وقوام الأمور . [٢]

ويرى الإمام أبو حنيفة أن الفقهاء والعلماء أولياء الله وأحباؤه حيث يقول رحمه الله : " إن لم يكن أولياء الله تعالى فى الدنيا والآخرة الفقهاء والعلماء فليس لله ولى " .

وعن زهد الأمام فحدث ولا حرج ، فقد قال عبد الله بن المبارك عن شيخه أبى حنيفة : ما تقولون فى رجل عرضت عليه الدنيا والأموال العظيمة فنبذها وراء ظهره ، فضرب بالسياط ، وقيل له خذ الدنيا فصبر على السراء والضراء ، وإن لم يدخل فيما كان غيره يطلبه ، ولقد كانت تأتيه الدنيا فيهرب منها .

وروى عن سهل بن مزاحم قال : كنا ندخل على أبى حنيفة ولا نرى فى بيته إلا البوارى . [٣]

وقد روى عن عبد الرزاق أنه قال : كنت إذا رأيت أبا حنيفة رأيت آثار البكاء فى عينيه وخديه .

---

(١) مناقب أبى حنيفة ج١ ص ٢٢١ .

(٢) نفس المصدر ج١ ص ٣٥٠ .

(٣) الحصير

وقال يحى بن نصر كان أبو حنيفة من أزهد الناس فى درهم يأخــذه من السلطان ، لقد أمر له أمير المؤمنين بجائزة مائتى دينار فما قبلها . [١]

وقال الحسن بن صالح كان أبو حنيفة شديد الورع ، هائباً للحرام ، تاركاً لكثير من الحلال مخافة الشبهة ، وكان جهازه كله إلى قبره .

وكان رجلاً بكاءً ، فقد قام ليلة كاملة يبكى ويتضرع وهو يردد آية : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾ (القمر : ٤٦) . وبلغ فى ليلة : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ (التكاثر : ١) . فرددها حتى أصبح .

نخلص من ذلك أن الرجل مع علمه وفقهه كان ورعاً زاهداً قانتاً بالليل بكاءً من خشية الله له خوف ورجاء ، تقبل عليه الدنيا فيرفضها ، وهذه سمات الصوفية الحقيقية قبل أن تدنسها أقذار البدع .

ونختم الكلام عن هذا الأمام بما ورد عنه من أنه كان يهضم نفسه ويلومها ويفعل بنفسه ما كان تفعله الملامتية من بعده .

فقد ورد أن أمير المؤمنين المنصور أراد أن ينصب قاضياً وفكر فى أربعة يصلحون لذلك : الأمام ابو حنيفة وسفيان الثورى ، ومسعر ابن كدام ، وشريك .

ففر سفيان الثورى ، وادعى مسعر الجنون ، وقال أبو حنيفة

---

(١) مناقب أبى حنيفة ج١ ص ١٨٩ .

لأمير المؤمنين (يا أمير المؤمنين أنا رجل غير عربى ومن موالى العرب ، ولا يرضى سادات العرب بحكمى ، فقال أبو جعفر المنصور هذا العمل لا يتعلق بالنسب وينبغى له العلم ، وأنت مقدم علماء الزمان . قال : أنا لا أليق بهذا العمل . فقال أمير المؤمنين كذبت فأنت أليق رجل بذلك . فقال أبو حنيفة . الكاذب لا يصلح أن تكل إليه أموال المسلمين وفروجهم وأنت خليفة الله ياأمير المؤمنين ، فنجا بهذا وعين شريك قاضياً .

❁ ❁ ❁

موقف الإمام مالك من التصوف :

فى جو المدينة الهادئ كانت حياة الأمام مالك حيث ولد عام ٩٣ هـ ، ونشأ فى بيت علّم وصلاح ، وتعلم على يد أكابر التابعين مثل نافع وربيعة رضى الله عنهما ، وكان يتتبع السنن ويكتب الحديث ، وله قدم راسخ فى الفقه وهو أحد الفقهاء الأربعة .

وعن عبادته يقول ابن وهب كان أكثر عبادة مالك فى السر بالليل حيث لا يراه أحد ، وقد كان فى كُمّه – رحمه الله – منديل مطوى على أربع طيات فإذا سجد سجد عليه ، فقيل له فى ذلك . قال : افعله لئلا يؤثر الحط على جبهتى فيظن الناس أنى أقوم الليل .

ويقول ابن المبارك : ورأيت مالكا فرأيته من الخاشعين ، وإنما رفعه الله بسريرة بينه وبينه ، وذلك أنى كثيراً ماكنت أسمعه يقول : من أحب أن يفتح له فُرجة ، وينجو من غمرات الموت ، وأهوال يوم القيامة فليكن عمله فى السر أكثر منه فى العلانية .

وذكر ابن عبد البر فى (التمهيد) أن عبد الله العمرى العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل – أى على العزلة والتعبد – فكتب إليه مالك : " إن الله قسم الأعمال كما قسّم الأرزاق ، فرب رجل فتح له فى الصلاة ولم يفتح له فى الصوم ، وآخر فتح له فى الصدقة ولم يفتح له فى الصلاة ، وآخر فتح له فى الجهاد . فنشر العلم من أفضل أعمال البر ، وقد رضيت بما فتح لى فيه ، وما أظن ما أنا

فيه بدون ما أنت فيه ، وارجو أن يكون كلانا على خير وبر . [١]

وعن الزهد يقول الأمام مالك : الزهد فى الدين:طيب المكسب وقصر الأمل .

يقول الحارث بن مسكين وهو أحد معاصريه : رحم الله مالكا ما كان أصون للعلم ، وأصبر على الفقر ولزوم المدينة .

وكان رغم زهده وورعه يتاجر فى الأقمشة مع أخيه ، ولكن كان يصرف مايربحه على العلم وأهله حتى ذكر القاضى عياض أنه أنفق ماكان يملك حتى بلغ به الحال إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه .

وزهد الأمام مالك لم يكن يعنى رثاثة الثياب ودروشة لا معنى لها ، بل كان يزهد فى الوقت الذى كان يلبس أجود اللباس وأغلاه . لأنه كان يرى أنه لا خير فى رجل يعرف دينه بلباسه وربما يتعارض هذا الموقف مع أغلب الصوفية الذى قالوا بلبس الصوف لأنه عنوان التقشف والزهد .

ولهذا كان الأمام مالك يكره خلق الثياب - أى البالى منها ، وكان الأمام مالك كثيراً ما يوصى الناس بتقوى الله يقول خالد بن خداش : " ودعت مالكا بن أنس فقلت : أوصنى يا أبا عبد الله . قال : تقوى الله وطلب الحديث من عند أهله " . [٢]

---

(١) سير أعلام النبلاء ج٨ ص ١٠٢ .

(٢) حلية الأولياء ج٦ ص ٣٢٨ .

وكان مالك يقول : من التزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا لأن الله يقول : ﴿ وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٢) . وقد كتب إليه أحد عبَّاد المدينة ناصحاً إياه قائلاً : " بلغنى أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق ، وتجلس على الوطيئ ، وتجعل على بابك حاجباً ، وقد جلست مجلس العلم ، وقد ضربت إليك المطى ، واتخذك الناس إماماً ورضوا بقولك . فاتق الله يا مالك وعليك بالتواضع ، وقد كتبت إليك بالنصيحة منى كتابا ما اطلع عليه غير الله تعالى " . فرد عليه مالك وقال :" قد وقع منى كتابك موقع النصيحة والشفقة والأدب امتعك الله بالتقوى ، وجزاك بالنصيحة خيراً ، أما ما ذكرت لى أنى آكل الرقاق ، والبس الدقاق فنحن نفعل ذلك ونستغفر الله منه ، وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (الأعراف : ٣٢) . وأنى لأعلم أن ترك ذلك خير من الدخول فيه ، ولا تدعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا .

والإمام مالك فيما روى عنه كان فى عصر قد بدأ مصطلح التصوف والصوفية يظهر للوجود .

ولهذا نجد (ابن عجيبة) ينقل عن الأمام مالك قوله : " من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق " . (١)

---

(١) أيقاظ الهمم ، وشرح الحكم لابن عجيبة ج١ ص ٥ .

وقد ذكر القاضى عياض بسند جيد أن أمير المؤمنين أبا جعفر المنصور ناظر مالكا فى مسجد رسول الله فقال له مالك لا ترفع صوتك فى المسجد فإن الله أدب قوماً فقال : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ (الحجرات : ٢) ومدح قوماً فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (الحجرات : ٣) . وذم قوماً فقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ ﴾ (الحجرات : ٤) . وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً . فاستكان لها أبو جعفر ، وقال : يا أبا عبد الله استقبل القبلة وادعو ، أم استقبل رسول الله . فقال : ولم تصرف وجهك وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم ، بل استقبله واستشفع به يشفعه الله فيك . [1]

نخلص من ذلك أن الأمام مالك كان عالماً فقيهاً محدثاً زاهداً ورعاً تقياً ، ومع ذلك كان يأكل الطيب ويلبس الفاخر ، فزهده كان إيجابياً يعنى عدم الركون إلى الدنيا والانغماس فيها . فكان ﷺ يملك الدنيا ولا تملكه . كما عاش الأمام مالك فى عصر بدأ التصوف والصوفية بالظهور ، ولهذا امتدح التصوف شريطة أن يكون عن علم وفقه . [2]

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى جـ٢ ص ٤٠ .

(٢) هذا إن صح ما أورده ابن عجيبة .

الإمام الشافعى والتصوف :

لقد عاش الأمام الشافعى فى بداية الحكم العباسى الذى يعتبر من أنضر عصور الإسلام حضارة وفكراً وثقافة وعلماً .

وقد شمر الأمام عن ساعد الجد فى سبيل الحصول على العلم والقيام بواجب التعليم لما رزقه الله من الفهم والمعرفة بالكتاب والسنة ، فكوّن عليه رحمة الله مدرسة تمثل التربية الإسلامية فى صفائها ونقائها ، عقيدة وشريعة .

ومع أن الرجل هاشمى وقد ولد بغزة عام ١٥٠ هـ ، ومات بمصر عام ٢٠٤ هـ . إلا أن تلاميذه قد انتشروا فى أرجاء المعمورة ومذهبه يعد من أكثر المذاهب انتشاراً .

وكان الشافعى – كما يقول عنه ابن حنبل – شمس الدنيا وعافية الناس ، وكان كثير العبادة يجمع فى العبادة بين الرغبة والرهبة .

يقول الشافعى : ماشبعت منذ خمسة عشر عاما ، لأن الشبع يثقل البدن ويقسى القلب ويزيل الفطنة ، ويجلب النوم ، ويضعف صاحبه عن العبادة . (١)

ومن المعلوم لدى الصوفية أن الجوع أحد أركان المجاهدة ، وهو أحد صفات الصوفية كما يقول القشيرى .

وكان ﷺ زاهداً لمعرفته بحقيقة الحياة الدنيا ، ومعرفته لسر

---

(١) حلية الأولياء ج٩ ص ١٣٥ .

وجود الإنسان فيها ، وكان يقول :

إن الله عبـــاداً فطناً طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلمـــا علموا أنها ليست لحى وطنا
جعلوها لجــــة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا [(١)]

والتوكل عنده لا يعنى ترك الأسباب لأن التوكل عمل القلب لا عمل الجوارح .

وأما ما استحدث فى عهده من الغناء والتغبير وهو ما يطلق عليه فى زماننا بالأنشاد ، فقد كان الشافعى له رأى خاص فى هذا حيث كان يقول وهو فى مصر : " خلفت بالعراق شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن " . ولهذا كان أصحاب الشافعى ينكرون السماع .[(٢)]

وكلمة التصوف قد شاعت زمن الشافعى ولهذا فقد نقل عنه روايات متناقضة فى شأنه .

حيث قد ورد عنه كما يقول ابن القيم فى تلبيس ابليس : " لو أن رجلاً عاقلاً تصوف لم يأت الظهر حتى يصير أحمق " ، وقوله : " ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فعاد عقله إليه أبداً " .

ثم نرى ابن القيم نفسه يذكر عن الشافعى قوله : " صحبت

---

(١) ديوان الشافعى ص ٨٤ .

(٢) الاستقامة ج١ ص ٣٨٥ .

الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون : الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل " .

يذكر القشيرى أن الأمام أحمد بن حنبل كان عند الشافعى فجاء شيبان الراعى فقال أحمد : أريد يا أبا عبد الله أن أنبِّه هذا على نقصان علمه ليشتغل بتحصيل العلوم . فقال الشافعى : لا تفعل . فلم يقنع . فقال لشيبان : ما تقول فيمن نسى صلاة من خمس صلوات فى اليوم والليلة ولا يدرى أى صلاة نسيها ما الواجب عليه ؟ فقال شيبان : هذا قلب غفل عن لله تعالى فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه . فغشى على الأمام أحمد ، فلما أفاق قال له الشافعى : ألم أقل لك : لا تحرك هذا .

كما نقل عن الشافعى قوله معلقاً على الحديث المشهور : " حبب إلى من دنياكم " وأنا حبب إلىَّ من دنياكم ثلاث : ترك التكلف ، وعشرة الخلق بالتلطف ، والاقتداء بطريق أهل التصوف .

ويبدو أن حديث حبب إلىَّ من دنياكم ثلاثة . حديث لا يصح وظاهر فيه الصنعة الصوفية لكن مع ذلك فإن الشافعى قد وقف من الأعمال الصوفية موقف الناقد البصير بدقائق البدع القائل : إذا وجدتم فى كتبى ما يخالف الكتاب والسنة فاضربوا به عرض الحائط .

وموقف الناقد للتصوف الآخذ منه مايوافق الكتاب والسنة ، والتارك لما يخالفهما ، وهو أيضا موقف الشافعية من بعده أمثال الغزالى ، والقشيرى والرازى .

وكان الشافعى صاحب فراسة قلما تخطئ ، فقد روى أن الشافعى ومحمد بن الحسن كانا يجلسان فى الحرم فأقبل رجل ، فقال محمد بن الحسن أراه حداداً فقال الشافعى : أتفرس أنه نجار . فلما سئل الرجل قال : كنت حداداً وأنا الآن أنجر . [1]

❁ ❁ ❁

---

(١) الرسالة القشيرية ج٢ ص ٦٣٨ .

الأمام أحمد بن حنبل والصوف :

عاش الأمام أحمد مابين عام ١٦٤ هـ إلى عام ٢٤١ ، وقد امتحن الرجل فى مسألة خلق القرآن زمن الأمين والمأمون والمعتصم . وكان له موقف مشرف فى الزود عن حياض العقيدة حتى ولو أدى ذلك إلى جلده وسجنه حتى قال على بن المدينى : " إن الله أعز هذا الدين برجلين ليس لهما ثالث ، أبو بكر الصديق يوم الردة ، وأحمد بن حنبل يوم المحنة .

وقال اسحاق بن راهوية : لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لذهب الإسلام .

وهذه الأقوال رغم المبالغة التى تحتوى عليها غير أنها تشير إلى ثبات الرجل فى المواقف التى امتحن فيها .

وكان عصر ابن حنبل يموج بالتيارات الفكرية ومنها التيار الصوفى .

وكان للإمام أحمد بن حنبل الباع الطويل فى مواجهة هذه التيارات بالرد عليها إن لزم الأمر أو أقرار بعضها والرد على البعض الآخر كما فعل مع الصوفية .

فنراه زاهداً ورعاً لا يفرح إن أقبلت الدنيا ، ولا يحزن إن أدبرت ، وقد قسم الزهد إلى ثلاثة : زهد العوام وهو ترك الحرام ، وزهد الخواص وهو ترك الفضول من الحلال ، وزهد العارفين وهو ترك مايشغل عن الله .

وهذا كلام لا يبعد كثيراً عن ما نقل عن الصوفية ، وكان يتأسى في زهده-كما يروى الخلاّل-بالحسن البصرى وابن سيرين وابراهيم ابن أدهم .

وقد روى أن أخت بشر الحافى (الصوفى الكبير) ذهبت إلى الأمام أحمد تسأله عن مسألة (هل يجوز لنا أن نغزل الصوف فى ضوء مشاعل الجند الذين يسيرون ليلاً ؟) فقال لها الأمام : من أنت يرحمك الله ؟ قالت : أنا أخت بشر الحافى فبكى وقال : من عندكم يخرج الورع الصادق . لا تغزلوا . (١)

ويؤخذ من هذه الحادثة المشهورة :

١ – أن الصوفية الأوائل كانوا لا يتورعون عن سؤال الفقهاء فيما لا يعرفون .

٢ – توقير واحترام الأمام أحمد بن حنبل لأهل التصوف الصادقين .

٣ – أن دقائق التصوف كانت معروفة فى عصر الأمام أحمد بن حنبل ، مثل الورع .

٤ – حرص الصوفية على تحرى الحلال فى المأكل والمشرب وتركهم لكل مافيه شبهة .

---

(١) ص ٣١٧ ج١ من الرسالة القشيرية .

وقد روى أيضا أن الإمام أحمد كان يعتب على الحارس المحاسبى (الصوفى الكبير) لأنه كان يدخل فى مسائل لم يكن يتعرض لها الأوائل ، وكان الأمام أحمد ينهى عن الجلوس فى حلقة الحارس المحاسبى لهذا الأمر .

وكان يرى أن مصطلح الزهد أفضل من مصطلح التصوف لهذا اثر أن يضع عنوان " الزهد " لكتابه دون التصوف مع أن المضمون يحتوى على الكلام فى الأعمال القلبية والوجدانيات .

وقد روى أبو نعيم بسنده إلى صالح بن أحمد بن حنبل قال : دخلت على أبى فى أيام الواثق – الخليفة العباسى – والله أعلم فى أى حالة نحن . وقد خرج لصلاة العصر ، وقد كان له لبد – حصير – يجلس عليه ، وكان قد بلى فإذا تحته كتاب من أحد الأغنياء يقول فيه " بلغنى يا أبا عبد الله ما أنت فيه من الضيق ، وما عليك من الدين ، وقد وجهت إليك بأربعة آلاف درهم مع فلان ، لتقضى بها دينك ، وتوسع بها على عيالك ، وماهى من صدقة ولا زكاة ، وإنما شئ ورثته عن أبى " .

فكتب إلى الرجل : " وصل كتابك إلىَّ ونحن فى عافية ، وأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا ، وأما العيال فهم فى نعمة والحمد لله .

هذا دليل على ورع وزهد الرجل ، رضى الله عنهم جميعاً .

❁ ❁ ❁

المبحث السادس

الاحتفال بالمولد النبوى

الاحتفال بالمولد النبوى

هل يجوز الاحتفال بالمولد النبوى الشريف ؟

هذا سؤال قد يتردد كثيراً فى الأوساط الإسلامية خاصة حينما يهل على المسلمين هلال ربيع الأول .

والعلماء فى مسألة الاحتفال بمولد المصطفى ﷺ قد اختلفوا بين قائل بحرمة الاحتفال ، وبين قائل بجوازه .

وقبل تفصيل هذا الأمر علينا ذكر ثلاثة أمور هامة :

أولاً : أن كلاً من الفريقين لا يشك أحد فى أنهم يحملون لرسول الله ﷺ من الحب والتوقير والتبجيل ما لا يكون لغيره ﷺ من البشر .

ثانياً : أن الجميع متفق على أن مايحدث فى الاحتفال من معاصى وآثام كالاختلاط والرقص والشرب للمخدرات والطبل والزمر ، كل ذلك محرم شرعاً سواء كان فى مناسبة المولد أو فى غيره من سائر الأيام .

ثالثاً : يكاد يتفق المانعون والمجوزون على أن مظاهر الاحتفال بالمولد النبوى لم تكن فى القرون الثلاثة الفاضلة ، وأن العهد الفاطمى هو الذى شهد بداية هذه الاحتفالات .

المانعون وأدلتهم :

يذهب كثير من العلماء خاصة ممن ينتمون إلى التيار السلفى وعلى رأسهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ، إلى عدم جواز الاحتفال

بالمولد النبوى الشريف ، وأن الاحتفال بدعة مذمومة .

يقول الأمام الفاكهانى المالكى : " لا أعلم لهذا المولد أصلاً فى كتاب ولا سنة ولم ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة فى الدين ، بل هو بدعة أحدثها البطالون ، وشهرة اعتنى بها الأكالون " . (١)

واستدل المانعون للاحتفال بما يلى :

١ – قوله ﷺ : " كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار " .

٢ – أن الصحابة كانوا أشد حباً لرسول الله ومع ذلك لم يؤثر عنهم أنهم احتفلوا بالمولد .

٣ – أن الخلاف قد وقع بين كتاب السيرة النبوية فى اليوم الذى ولد فيه رسول الله ﷺ .

٤ – أن كثيراً من المعاصى ترتكب فى هذه الاحتفالات من اختلاط وطبل وزمر ، وغناء بجانب الإسراف فى المأكل والمشرب .

٥ – أن الاحتفال بالمولد لا يخرج حكمه عن الأحكام الخمسة التى هى الوجوب ، والندب ، والإباحة ن والكراهة ، والحرمة . وهو ليس بواجب إجماعاً ، ولا مندوب . لأن المندوب هو ما طلبه

(١) ص ٦١ من كتاب نهاية الإيجاز .

الشارع من غير ذم على تركه ، وهذا لم يأذن فيه الشرع ولا فعله الصحابة ولا التابعون ، وليس مباحاً لأن الابتداع فى الدين ليس مباحاً بإجماع المسلمين فلم يبق إلا أن يكون مكروهاً أو حراماً .

٦ - قوله ﷺ لا تجعلوا قبرى عيداً ، ولا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ان مريم .

المجوزون وأدلتهم :

يرى جمع كبير من العلماء وكذا أهل التصوف ، إلى جواز الاحتفال بمولد النبى ﷺ ذاهبين إلى أنه لا غرابة فى الاحتفال بمولده الشريف ، وهو وإن كان بدعة فهو من البدع المحمودة ، وابتداعه مبنى على قاعدة الشكر للمولى عز وجل فى إيجاد هذه الشخصية العظيمة .

وعلى رأس هؤلاء العلماء الأمام السيوطى وابن حجر والغزالى وعبد السلام اللقانى . ولهؤلاء تأليف فى جواز الاحتفال بمولد النبى ﷺ ، ولهم أدلة على ذلك منها :

١ - قوله تعالى : (وذكِّرهم بأيام الله) فالله عز وجل أمر موسى عليه السلام أن يذكر بنى إسرائيل بالأيام الفاضلة التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل وأمتن عليهم فيها .

ونحن نعلم أن رسول الله نعمة من الله لا تساويها نعمة كما قال تعالى : (لقد منَّ الله على المؤمنين) .

٢ – ماثبت فى الصحيح من أن النبى ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم ، فقالوا : هذا يوم أغرق الله فيه فرعون ، ونجى موسى ، فنحن نصومه شكراً لله ، فقال : أنا أحق بموسى منكم فصامه وأمر الناس بصيامه .

ويؤخذ منه : فعل الشكر لله تعالى على ما منّ به فى يوم معين من أسداء نعمة ، أو دفع نقمة ، ويعاد ذلك فى نظير ذلك اليوم من كل سنة ، وهذا ماذكره ابن حجر رحمه الله .

والشكر لله يحصل بأنواع العبادات ، وأى نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبى الهاشمى .

٣ – أن رسول الله ﷺ ، كان يصوم يوم الإثنين ، فلما سئل فى ذلك قال:ذاك يوم ولدت فيه .

٤ – أن (ثويبة) جارية أبى لهب لما بشرته بولادته ﷺ اعتقها عتقاً منجزاً ثم جعلها ترضعه بعد ولادته أياماً ، فخفف الله عنه العذاب كل يوم اثنين الذى هو يوم مولده لفرحه بمولده .

يقول أبو عبد الله الدمشقى فى هذا المعنى :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه — فى تبت يدا فى الجحيم مخلدا

أتى إلينا أنه يخفف عنه — للسرور بأحمدا

فما الظن بالعبد الذى كان — عمره بأحمد مسرور ومات موحدا

إذا كان أهل الكهف قد فاز كلبهم — فما بال من تبع النبى محمدا

٥ – ذكر الحافظ السيوطى رحمه الله تخريجاً من السنة أيضاً لعمل المولد الشريف ، وهو ما أخرجه البيهقى عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ عق عن نفسه بعد النبوة ، مع أنه قد ورد أن عبد المطلب جده قد عقّ عنه يوم سابعه والعقيقة لا تعاد مرة ثانية ، فيحمل ذلك على أن هذا الذى فعله رسول الله ﷺ إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين ، كما كان يصلى على نفسه فيستحب لنا إظهار الشكر بمولده .

هذا وقد رد العلماء على الشيخ الفاكهانى الذى قال بأن الاحتفال بالمولد الشريف بدعة وضلاله . بأنه ليس كل بدعة مكروهة أو محرمة ، بل قد تكون مندوبة ، وقد تكون مباحة ، وقد تكون واجبة .

والبدعة فى اللغة ماكان مخترعاً على غير مثال سابق ، وفى الشرع ما أحدث على خلاف أمر الشارع ، ودليله الخاص أو العام . بل قد يكون الحامل عليه مجرد الشهوة والإرادة .

أما ماحدث مما له أصل فى الشرع ، إما بحمل النظير على النظير فإنه حسن . . ومن هنا قال سيدنا عمر نعمت البدعة هذه يقصد صلاة التراويح فى المسجد جماعة .

فالبدعة المذمومة هى المخالفة للسنة الداعية إلى الضلالة .

والبدعة من حيث هى منقسمة إلى خمسة أقسام :

١ – **بدعة واجبة :** وهى ما تناولته قواعد الوجوب وأدلته من الشرع كتدوين القرآن ، ومثلها طباعة المصاحف إذا خيف عليه من

الضياع ، ومن البدع الواجبة الاشتغال بالعلوم التى لابد منها لحفظ الكتاب والسنة مثل النحو والصرف ، والجرح والتعديل ، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

٢ – **بدعة حرام** : وهى كل بدعة تناولتها قواعد التحريم مثل الاشتغال بالتمثيل الهابط ، والسينما الخليعة والانضمام للمذاهب الهدامة كالشيوعية والوجودية .

٣ – **بدعة مندوب إليها** : وهى ما تناولته قواعد الندب وأدلته مثل صلاة التروايح فى جماعة ، وإقامة أبهة العلماء والقضاة والحكّام على خلاف ما كان عليه الصحابة لأن تعظيم الناس فى زمن الصحابة إنما كان بالدين وسابق الهجرة ، ومن البدع المندوبة أيضا الاشتغال بدقائق العلوم .

٤ – **بدعة مكروهة** : وهى ما تناولتها أدلة الكراهة من الشريعة مثل تخصيص يوم الجمعة بالصيام ، وزيادة التسابيح بعد الصلاة المفروضة مائة تسبيحة بدلاً من ثلاث وثلاثين ، والبدعة هنا فى الزيادة لا فى التسبيح .

٥ – **بدعة مباحة** : وهى ما تناولتها أدلة الإباحة وقواعدها من الشريعة وعليه فقوله ﷺ : " إياكم ومحدثات الأمور " عام أريد به خاص ، إذ سنه الخلفاء الراشدين منها .

وقد تكلم الإمام أبو عبد الله بن الحجاج فى كتابه " المدخل " على عمل المولد فأتقن الكلام فيه وحاصله (مدح ما كان فيه من إظهار

شكر ، وذم ماحتوى عليه من محرمات ومنكرات) .

وقال الحافظ : " أصل عمل المولد بدعة لم تنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة ، ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها فمن تحرى فى عمله المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة ، ومن لا فلا " .

وقال العلامة ابن عمر الجزرى الشافعى : " هذه بدعة لا بأس بها ، ولا تكره البدع إلا إذا راغمت السنة ، وأما إذا لم تراغمها فلا تكره ، ويثاب الإنسان بحسب قصده فى إظهار السرور والفرح بمولد النبى ﷺ " .

وابن الجوزى فى كتابه (التعريف بالمولد الشريف) يقول : " الحقيقة أن مولده عيد وأى عيد يشمل القريب من أمته والبعيد " .

وخلاصة ماسبق أن الاعتناء والاحتفال بمولده الشريف والإنشاد بالمدائح النبوية والزهدية ، وتذكير الناس بفضائله ، وإطعام الطعام ، وأخراج الصدقات ، وشكر الله على النعمة المسداة إلينا دون خروج على حدود الأدب مع رسول الله ، ودون مبالغة يثاب فاعله حسب قصده ونيته . والله أعلم .

۞ ۞ ۞



المبحث السابع

السماع عند الصوفية



السماع عند الصوفية

هذا الموضوع من الموضوعات التى كثر الحديث حولها ، وثار الخلاف بين الصوفية والفقهاء فيها ، والفت فى ذلك كتب خاصة أو فصول فى كتب تمثل وجهتى نظر المجيزين للسماع والمانعين له .

يقول النويرى فى : (نهاية الأرب) تكلم الناس فى الغناء فى التحريم والإباحة ، واختلفت أقوالهم ، وتباعدت مذاهبهم ، وتباينت استدلالاتهم ، فمنهم من رأى كراهته وأنكر استماعه ، واستدل على تحريمه ، ومنهم من رأى خلاف ذلك مطلقاً وأباحه وصمم على إباحته ، ومنهم من فرق بين أن يكون الغناء مجرداً ، أو أضيف إليه آله كالعود والدفوف والمعازف والقصب ، فأباحه على انفراده ، وكرهه إذا انضاف إلى غيره ، وحرم سماع الآلات مطلقاً .

ولكل طائفة من أرباب هذه المقالات أدلة استدلت بها [١] ، وهناك كتاب لابن القيسرانى اسمه (السماع) ، وكتاب (كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع) لابن حجر الهيثمى ، وكتاب (إيضاح الدلالات فى سماع الآلات) لعبد الغنى النابلسى .

وقد عقد الغزالى فصلاً خاصاً للسماع فى كتابه (إحياء علوم الدين) وعقد السهروردى ثلاثة أبواب فى كتابه (عوارف المعارف) عن السماع ، وأبو طالب المكى فى كتابه (قوت القلوب) .

---

(١) نهاية الأرب ج٤ ص ١٣٢ .

ونحن حين نستعرض آراء المجوزين والمانعين لابد من الإشارة إلى بعض النقاط :

أولاً : نحن جميعاً مأمورون بالاستماع إلى القرآن الكريم والإنصات إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٤) .

ثانياً : التأثر بسماع القرآن والبكاء والخشية ، لا يختلف عليه اثنان من أهل الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ (المائدة : ٨٣) . وقال تعالى : ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الزمر : ٢٣) .

ثالثاً : كان رسول الله ﷺ يحب الاستماع إلى القرآن من صاحب الصوت الحسن . لأن الله سبحانه وتعالى لا يستمع إلى صوتٍ استماعه إلى صاحب الصوت الحسن الذى يتغنى بالقرآن ، ولهذا كان الرسول يحب أن يسمعه من غيره . ويقول لأبى موسى الأشعرى لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود .

رابعاً : لا يختلف اثنان من أهل الإسلام والإيمان على حرمة غناء وسماع الأغانى الهابطة الداعية إلى الفسق والفجور ، ووصف النساء ، والخمور والمحرمات .

خامساً : الشعر المجرد العفيف الداعى إلى الفضائل والمحذر

من الرذائل ، أو المثنى على الله بما هو أهله أو المادح للرسول ﷺ . كل ذلك لم يقع فيه الخلاف القاءًا أو سماعاً . والكل يعلم أن الرسول ﷺ كان يشجع حسان بن ثابت على إلقاء الشعر ، ويقول (اهجوهم وروح القدس من ورائك) .

وكان يقول ﷺ : " انشدينا يا خناس " واعطى كعب بن زهير بردة كانت عليه حين أنشد فى المسجد قصيدة (بانت سعاد) .

سادساً : لم يقع الخلاف فى غناء المناسبات كالزفاف ، والأعياد الوطنية ، أو الحماسة فى الحرب .

فالكل يعرف أن رسول الله ﷺ قال لعائشة : " ألا أرسلتم من يغنى ويقول : أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم ، ولولا الحنطة الصفراء ماسمنت عذاريكم ، ولو الذهب والفضة ماحلت بواديكم " .

كما أن الرسول ﷺ كانت عنده جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، ولما دخل أبو بكر انتهرهما وقال : مزمارة الشيطان عند رسول الله ؟ فقال النبى دعهما يا أبا بكر ، فهذا عيدهم .

سابعاً : الكلام هو الذى يحدد الحرمة والحل فإذا كان الكلام – سواء كان شعراً أو نثراً – طيب يدعو إلى مكارم الأخلاق فلا حرمة فيه سواء كان عادياً أو غنائياً . أما إذا كان فيه دعوة للفجور فهو حرام حتى ولو كان حروفاً على ورق ، معنى ذلك أن حلال كل شئ حلال وحرامه حرام .

حكم الصعق عند سماع القرآن :

وقد وقع الخلاف أولاً فى حالات الصعق عند الصوفية من سماعهم القرآن ، حتى أدى ببعضهم إلى خروج روحه . فمنعه بعض الفقهاء بحجة أن الرسول كان يقرأ القرآن ولم يحدث أن صعق أحد من الصحابة وهم ألين الناس قلباً ، وأكثر الخلق إيماناً .

وقد أجاز السادة الصوفية ذلك وردوا على المخالفين بما يلى :

١ – فأورد عن عمر ﷺ أنه سمع قارئاً يقرأ أول سورة الطور حتى وصل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ ﴾ فوقع عن دابته ومكث فى بيته يعوده الناس .

٢ – أن الصحابة لم يكونوا يصعقون لأنهم أقوى إيماناً وأن قلوبهم – كما يروى ابن تيمية – كانت تقوى على الوارد إليها بخلاف الصوفية فإنها لا تقوى على ذلك .

٣ – أن كثيراً مانسمع عن أناس ماتوا من شدة الفرح أو شدة الحزن والعلم الحديث يقرر هذا فما المانع أن يصعق المتلقى حين يسمع آية الوعد أو الوعيد .

٤ – أن رسول الله – وهو من هو – حين نزل قول الله ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ۝ ﴾ لم يأكل طعاماً ثلاثة أيام .

حكم الاستماع إلى الأناشيد والمدائح النبوية والغناء العفيف :

وقع الخلاف أيضاً حول الأناشيد والمدائح النبوية .

فذهب قوم إلى منعها مستدلين على ذلك بأنه لم يكن على عهد النبى ﷺ ، وأن ذلك يلهى عن ذكر الله ، وعن الصلاة . وأنه يحدث فيه كثير من المبالغات والمنكرات ، وسداً للذرائع يجب منعه .

وقد أجازه البعض من الفقهاء وكذا الصوفية معتمدين على أن ذلك نوع من الترويح المطلوب لأن النفس إذا دامت على الجادة ربما ملّت .

وقد صح أن بعض الصحابة والتابعين سمعوا الغناء وحضروا مجالسه ، وقد نقل أبو طالب المكى إباحة السماع عن جمع من الصحابة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ومعاوية وغيرهم .

وقد فعل ذلك كثير من السلف صحابى وتابعى . وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع فى أفضل أيام السنة وهى الأيام المعدودات التى أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق .

وقد استدل المجوزون لهذا النوع من الإنشاد والغناء بما ورد :

١ – قرر علماء الإسلام أن الأصل فى الأشياء الإباحة . ولا تحريم إلا بنص صحيح صريح من كتاب الله ، أو سنة رسوله ﷺ ، أو إجماع ثابت متيقن . فإذا لم يرد نص ولا إجماع بتحريم شئ من الأشياء لم يؤثر ذلك فى حله ، وبقى فى دائرة العفو . وقد قال

الرسول ﷺ : " ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو " الحاكم وصححه .

٢ – حديث الجاريتين حين دخل أبو بكر وهما يغنيان بين يدى النبى ﷺ وقول النبى لأبى بكر دعهما يا أبا بكر .

٣ – أن أنجشه كان يحدو وهو يسوق الأبل وعليها نساء النبى ، وقال النبى ﷺ : يا أنجشه رفقا بالقوارير .

٤ – أن النبى ﷺ لم ينهر البنات اللاتى كن يغنين أمامه ويقلن وهو داخل المدينة

نحن بنات بنى النجار حبذا محمد من جار

٥ – أن امرأة قالت للنبى ﷺ وهو عائد من المعركة أنى نذرت أن أضرب بالدف بين يديك إن ردك الله سالماً . فقال لها النبى ﷺ أوفى بنذرك . ومن المعلوم أنها لو كانت معصية لم يقرها النبى ولم يطالبها بالوفاء .

٦ – ليس فى القرآن ما يشير صراحة إلى حرمة هذا النوع من الغناء .

وما يقال إن قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِى لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان : ٦) أنه الغناء .

إن ذلك غير مسلَّم ، سيما وأن الكلام المنشود به أو القصيدة المتغنى بها ليس فيها ما يدعو إلى الضلال عن سبيل الله .

قال ابن حزم : لا حجة للمانعين فى هذا الدليل لوجوه :

أحدها : أنه لا حجة لأحد دون رسول الله ﷺ .

الثانى : أنه قد خالفهم غيرهم من الصحابة والتابعين .

الثالث : أن نص الآية يبطل احتجاجهم بها ، لأن الآية فيها ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ . وهذه صفة من فعلها كان كافراً بلا خلاف ، ولو أن أمرأ اشترى مصحفاً ليضل عن سبيل الله ويتخذه هزواً لكان كافراً . (١)

٧ – أن السماع قد يكون حراماً ، وقد يكون مكروهاً ، وقد يكون مستحباً .

أما الحرام : فهو الكلام الفاحش . **والمكروه** فهو لمن يتخذها عادة له فى أكثر الأوقات على سبيل اللهو . **والمستحب** فهو لمن غلب عليه حب الله ولم يحرك منه السماع إلا الصفات المحمودة . (٢)

٨ – ما رواه يحيى بن عبد الرحمن قال : " خرجنا مع عمر بن الخطاب فى الحج الأكبر حتى إذا كان عمر بالروحاء ، كلم الناس رياح بن المعترف ، وكان حسن الصوت بغناء الأعراب فقالوا : اسمعنا وقصر عنا الطريق . فقال : أنى أخاف من عمر . فكلم القوم عمر . فقال عمر بن الخطاب : يارياح ، أسمعهم وقصّر عنهم

---

(١) المحلى لابن حزم ج٩ ص ٦٠ .

(٢) الإحياء ج٢ ص ٢٨٤ .

الطريق ، فإذا اسحرت فارفع ، وخذ لهم من شعر ضرار بن الخطاب فرفع عقيرته (صوته) يتغنى وهم محرمون . فلما كان وقت السحر قال عمر : الآن اذكر الله .

٩ – ما رواه ميسرة قال رسول الله ﷺ " للَّه أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينتة " وهذا حديث رواه الحاكم وقال صحيح على شرط البخارى ومسلم .

ووجه الاستدلال بالحديث أن الرسول ﷺ قاس استماع الله إلى حسن الصوت بالقرآن كما يستمع صاحب القينة إلى قينتة ، فاثبت تحليل السماع إذ لا يمكن القياس على محرم .

١٠ – وعن مصعب الزبيرى قال : حضرت مجلس مالك بن أنس فسأله أبو مصعب عن السماع فقال مالك : ما أدرى أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك ، ولا يقعدون عنه ، ولا ينكره إلا غبى جاهل أو ناسك غليظ الطبع .

١١ – يقول ابن القيسرانى قدم ابراهيم بن سعد الزهرى العراق سنة أربع وثمانين ومائة فأكرمه الرشيد وسئل عن الغناء فأفتى بتحليله ، وأتاه بعض أصحاب الحديث ليسمع منه أحاديث الزهرى فسمعه يتغنى فقال : لقد كنت حريصا على أن أسمع منك الحديث ، أما الآن فلا سمعت منك حديثاً أبدا . فقال ابراهيم بن سعد إذا لا أفقد إلا شخصك . ثم بلغ الرشيد هذا الأمر فأرسل إلى إبراهيم وقال : من كان من فقهائكم يكره السماع ؟ فقال : من ربط الله على قلبه .

ومع هذه المبالغة من ابراهيم بن سعد فى مسألة الغناء إلا أنه صح عند سائر الأئمة أنهم يقولون بثقته وعدالته والرواية عنه ، واتفق البخارى ومسلم على إخراج حديثه فى الصحيح ، ولم تسقط عدالته بفعله هذا عند أهل العلم .

١٢ – أما احتجاج المانعين بأن ابن عمر حين سمع مزماراً وضع اصبعيه على أذنيه ونأى عن الطريق وقال لى يا نافع هل تسمع شيئا فقلت : لا . فرفع أصبعيه . وقال : كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا ، وصنع مثل هذا . رواه أبو داود .

ويمكن رد هذا الحديث من وجهين :

الأول : من ناحية الإسناد . وهو أن فيه سليمان بن موسى قال عنه البخارى : سليمان بن موسى عنده مناكير .

الثانى : قول عبد الله بن عمر لنافع : اتسمع ؟ ولو كان ذلك منهياً عنه لم يأمره بالاستماع .

وقول النبى لابن عمر : أتسمع لو كان حراماً لنهاه عنه ، ولصرح بتحريمه ، لأنه ﷺ المشرع والمأمور بالبيان فأى ضرورة أحوجته إلى أن يأخذ طريقاً آخر .

فقد هتك الستر الذى فيه تصاوير ، ونهى عمر بن الخطاب أن يحلف بأبيه ، وسمع رجلاً يلعن ناقته ، فوقف وقال : لا يتبعنا ملعون ، ورأى رجلاً مضطجعاً على بطنه فنهاه .

معنى ذلك لو كان ذلك محرماً لما تأخر الرسول فى البلاغ عن حرمته .

١٣ – واحتجاج المانعين بقول النبى ﷺ : من استمع إلى غانية صُبَّ فى أذنيه الآنك . وبحديث : " لعن الله المغنى والمغنى له " وبحديث : " إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة ، حلَّ فيها البلاء وعدَّ منها واتخذت القينات والمعازف " ، وبحديث : " صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة ، صوت مزمار عند نعمة ، وصوت نائحة عند مصيبة " وغير ذلك من الأحاديث التى يرى أهل العلم بالحديث أنها أحاديث لا تصح .

نخلص من ذلك أن السماع لا حرمة فيه مادام بشروطه التى وضحها العلماء التى منها :

أ – بعده على الفاحش من القول .

ب – عدم وصف النساء بما يثير الغرائز الكامنة .

ج – عدم الغلو فى المدح .

د – عدم اشتماله على قضايا كفرية .

هـ – عدم الدعوة إلى التبرج والسفور .

و – عدم الدعوة إلى التحلل والخلاعة والمجون .

فإن خلص من هذه الأمور فهو من اللهو المباح الذى يشير إلى يسر وسهولة هذا الدين وأنه لا يضيق على أتباعه .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : " ذلك لتعليم يهود المدينة أن فى ديننا فسحة وأننى أرسلت بالحنيفية السمحة " .

واللهو المباح لا حرمة فيه بل قد يصل إلى الوجوب حين يكون الهدف منه التفريج عن النفس لاستعادة نشاطها حتى تستأنف العبادة والعمل .

١٤ – ويؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ﴾ (الجمعة : ١١) مايفيد أن اللهو حلال لأنه معطوف على التجارة ، ولم يقل أحد بحرمتها .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ﴾ دليل على أن اللهو والتجارة منافع لكن ماعند الله أنفع، ولو كان الغناء والأناشيد والمدائح داخلة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ (لقمان : ٦). لما قال الرسول ﷺ لعائشة رضى الله عنها : " أما كان معكن من لهو ، فإن الأنصار يعجبهم اللهو " . رواه البخارى .

موقف الفقهاء من الغناء :

وفى الختام لابد من الإشارة إلى موقف الفقهاء الأربعة من السماع .

أما الشافعى فقد نقل عنه أنه قال : الغناء لهو ومن استكثر منه فهو سفيه ، وقال أيضا أن المرأة غير المحرم لا يجوز الاستماع إليها سواء كانت حرة أو مملوكة ، مكشوفة الوجه أو من وراء حجاب .

وينقل الغزالى عن الشافعى والشافعية . . فيقول فى الأحياء : وأما الشافعى ﷺ فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلاً ، وقال يونس بن عبد الأعلى : سألت الشافعى عن إباحة أهل المدينة للسماع ، فقال لا أعلم أحداً من أهل الحجاز كره السماع إلا ما كان منه فى الأوصاف يعنى أوصاف النساء . وأما الحداء ، وذكر الأطلال وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح .

وأما الأمام مالك فإنه نهىَ عن الغناء وعن استماعه . وقال إذا اشترى رجل جارية ووجدها مغنية كان له ردها بالعيب . وقد حكى القفّال أن مذهب مالك إباحة الغناء .

وأما أبو حنيفة فإنه يكره الغناء ، وأما الأمام أحمد فقد ذكر ابن الجوزى عنه ثلاث روايات .

ويقول الأمام المفسر والعالم الفقيه القرطبى : (إن الغناء عند المشتهرين به الذى يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل ، والمجون الذى يحرك الساكن ، ويبعث الكامن فهذا النوع إذا كان يشبب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهن ، وذكر الخمور والمحرمات . لا يختلف فى تحريمه فأما ما سلم من ذلك فيجوز منه القليل فى أوقات الفرح كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة كما كان فى حفر الخندق ، وحدُو انجشة ، وسلمة بن الأكوع) [1] .

---

(١) تفسير القرطبى ج١٤ ص ٥٥ .

يقول أبو الدرداء ﷺ : " إنى لأستجم نفسى بالشئ من اللهو ليكون أقوى لها على الحق " .

ويقول على بن أبى طالب ﷺ : " روّجوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا أكرهت عميت " .

ويقول أبو طالب المكى رحمه الله إن أنكرنا السماع مجملاً مطلقاً غير مقيد يكون إنكاراً على سبعين صديقاً ، وإن كنا نعلم أن الإنكار أقرب إلى قلوب القراء والمتعبدين وإلا فإنا لا نفعل ذلك لأنا نعلم مالايعلمون .

وسمعنا عن السلف من الأصحاب والتابعين مالا يسمعون [1] .

وهذا قول رجل يعرف عن السنن والآثار مالا يعرفه كثير ممن ينسبون إلى المذهب السلفى ، ومع ذلك يجب أن نبسط لهم لسان الاعتذار ونقول :

أنواع المنكرين للسماع :

إن المنكر للسماع على إطلاق من غير تفصيل بين حلاله وحرامه لا يخلو من أحد أمور ثلاثة :

إما جاهل بالسنن والآثار ، وإما مغتر بما أتيح له من أعمال الأخيار ، وإما جامد الطبع لا ذوق له فيصر على الإنكار ، وكل واحد

---

(١) عوارف المعارف ص ١١٥ . وممن أجاز السماع أهل المدينة ، والظاهرية ، وعبد الله بن جعفر ، القاضى شريح ، سعيد بن المسيب ، والزهرى والشعبى ، وعطاء ، وعمر بن عبد العزيز .

من هؤلاء يقابل بما يليق به .

أما الجاهل بالسنن والآثار فيعرف بما أسلفناه من حديث عائشة رضى الله عنها وبالآثار والأخبار الواردة فى ذلك .

وحتى الرقص بالحراب كان الرسول ينظر والسيدة عائشة معه حتى قال لها ﷺ : " دونكم يابنى ارفدة " ، وقد مرَّ معنا مافعله عمر وهو ذاهب إلى الحج . وكذا قول النبى لأنجشة : " رفقاً بالقوارير " .

وأما المنكر المغرور بما أتيح له من أعمال الأخيار . فيقال له تقربك إلى الله بالعبادة لشغل جوارحك بها ، ولولا نية قلبك ماكان لعمل جوارحك قدر ، والسامع إلى بيت شعر يأخذ منه معنى يذكره ربه إما فرحاً أو حزناً أو انكساراً أو افتقاراً إليه ألا يزداد بذلك من أعمال الأخيار .

أما جامد الطبع عديم الذوق . فنقول له علام انكارك على أناس تهفوا أفئدتهم إلى الملأ الأعلى حين يسمعون شادياً يتغنى بقصيدة تدعو إلى الوحدانية ، أو بيت شعر يذكر بالجنة ويصفها وما فيها . أو حتى بيت شعر يحث السامع إلى حب الوطن ، أو حب الفضيلة .

وأخيراً فإن السماع الذى نريد والغناء الذى نطلب ليس غناء الفضائيات الداعى إلى الفاحشة ولا غناء المطربات المتسكعات المائلات المميلات ، ولا الموسيقى الصاخبة التى تصم الآذان ، ولا طريقة المغنى فى أدائه بالتكسر فى القول ، وتعمد الإثارة .

وإنما المقصود بالسماع الذى يرقى الشعور ويسمو بالوجدان ، ويرتقى بالروح ويصعد بها إلى الملأ الأعلى ، ذلك ليعلم أعداء الدين أن فى ديننا فسحة ، وأن العظيم محمد ﷺ أرسل بالحنيفة السمحة التى لا تعقيد فيها ولا تحلل من القيم والمبادئ .

❊ ❊ ❊

المبحث الثامن

الصوفية والتحلل من الشريعة

الصوفية والتحلل من الشريعة

مما لاشك فيه أن فى كل ميدان من الميادين أدعياء يقومون بتشويه الميدان الذى ينتسبون إليه ، فتكون جنايتهم أشد وأنكى على غيرهم .

ومن المقرر أن المنهج العلمى السليم يجعل صاحبه يفرق بين المبدأ وبين المنتسب إليه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه لا يضع الأتباع كلهم فى سلة واحدة .

والممارسات الخاطئة للأتباع لا تنجر إلى المتبوع .

فكم من مبدأ صحيح اتبعه أناس مخطئون . فالنصرانية – مثلاً – فى حقيقتها ومبدئها دين الله الذى أنزله على عيسى عليه السلام . ولكن أتباعه بعد ذلك أوصلوه إلى دين وثنى قال بالتثليث والبنوة . . . الخ .

والميدان الصوفى – كغيره – يشمل الأدعاء والأولياء . الأدعياء الذين يزعمون أن العبد إذا وصل إلى درجة معينة تسقط عنه التكاليف الشرعية . زاعمين أن التكاليف إنما تقوم بدور الوسيط الذى يوصل صاحبه إلى الله سبحانه وهنا ينتهى دور هذه التكاليف .

فالتكاليف كالدابة توصلك إلى السلطان ولا تدخل بها على السلطان .

والحقيقة أن أصحاب هذا الفكر إنما يبغون من وراء ذلك :

١ – التحلل من الشريعة وإسقاط التكاليف الشرعية عنهم .

٢ – الاستفادة من دعواهم التصوف حيث القــرب مـــن أهــل التصوف والاستفادة المادية التى كانت تغدق على الخانقاه .

٣ – محاولة بعضهم تشويه الصورة الحقيقية للتصوف .

ولقد كان هذا النوع من الأدعياء موجودا منذ نشأة التــصوف ، ولكن الملاحظ أن العصر الحديث قد شهد كثرة كاثرة من هؤلاء . مما أعطى لأعداء التصوف فرصة ما كانوا يحلمون بها .

فبعد أن كان النقد منصبا على بعض الأفراد وجدنا النقد يــشمل كل الصوفية وحتى المبادئ التى اشتمل عليها التصوف .

ولسنا بحاجة إلى الرد على دعوى التحلل من الشريعة بعد قول الحق ﷻ لسيد العباد محمد ﷺ : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ الحجر : ٩٩ .

لكن من الإنصاف ذكر أقوال أكابر الصوفية فى الشريعة ومكانتها .

فها هو سيِّد أهل الطائفة الجنيد يقول : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة .

وقال : علمنا هذا مشيَّد بحديث رسول الله ﷺ .

وقال : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ، ولزم طريقته .

وذكر رجل المعرفة أمام الجنيد فقال : أهل المعرفة بالله – تعالى – يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله . فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة والذى يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا .

وها هو الصوفى الكبير أبو يزيد البسطامى يقول لأحد جلسائه : قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذى شهر نفسه بالولاية – وكان رجلاً مشهوراً بالزهد – فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ، ودخل المسجد رمى ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف أبو اليزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه ؟

ومن أقوال أبى يزيد فى هذا الشأن : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يطير فى الهواء ويمشى على الماء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

ويقول سهل التسترى : أصول طريقنا سبعة :

١ – التمسك بالكتاب .   ٢ – الاقتداء بالسنة .

٣ – أكل الحلال .   ٤ – كف الأذى .

٥ – تجنب المعاصى .   ٦ – لزوم التوبة .

٧ – أداء الحقوق .

ويقول الإمام الغزالى : واعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعِّى فيه كثير ، ونحن نعرفك علامة له . وذلك :

أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توقيفاته . إيرادا وإصدارا ، إقداما وإحجاما . إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض .

فإن قلت : فهل تنتهى رتبة السالك إلى الحد الذى يحط عنه بعض وظائف العبادات ، ولا يضره بعض المحظورات كما نقل عن بعض المشايخ من التساهل فى هذه الأمور ؟

أقول لك : اعلم أن هذا عين الغرور . وأن المحققين قالوا : لو رأيت إنسانا يطير فى الهواء ويمشى على الماء وهو يتعاطى أمرا يخالف الشرع فاعلم أنه شيطان .

ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلى :

إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف ، وقل لنفسك : إن الله ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ولم يضمنها فى جانب الكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة .

معنى ذلك أن الصوفية يتبعون تعاليم الكتاب والسنة وهم على يقين بأن الرسول ﷺ القدوة الحسنة لهم وللمسلمين جميعا ، وأن العمل الصالح هو جزء الإيمان الذى به يدخل المرء فى زمرة المؤمنين

الذين يمتعون بلقاء مولاهم فى الجنة كما قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ الكهف : ١١٠ .

وقد قال المصطفى ﷺ عن قوم تركوا العمل وقالوا نحسن الظن بالله ، فقال النبى ﷺ : كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

الإمام الغزالى وموقفه من التكاليف الشرعية :

لقد قام الإمام الغزالى بعرض المسألة والرد على الزعم بأن التكاليف الشرعية تسقط فى مرحلة من مراحل المريد السالك . مما يشير إلى أن هذه الدعوى سابقة على زمن الغزالى .

وقد أوضح – رحمه الله – أن التكاليف الشرعية لا تسقط عن الإنسان بحال من الأحوال .

وقد أرسل أحد المتحللين كتاباً إلى الإمام الغزالى جاء فيه :

متَّع الله المسلمين ببقائه ، ومتَّع الطالبين بمشاهدته ولقائه ، ومنحه أفضل خاصة من أصفيائه وأوليائه فى قلب خصه الحق بأنواع من الطرق والهدايا ، ومنحه أصنافاً من الأنوار والعطايا ، يستمر له ذلك فى جميع الأوقات والأحوال متزايدة مع عدم العوائق والآفات . مع كون ظاهره مغموراً بأحكام الشرع وأدائه منزهاً عن مآثمه ومخالفاته ويجد فى الباطن مكاشفات وأنوار عجيبة .

ثم انكشف له نوع يعرفه أن المقصود من التكاليف الشرعية ، والرياضات الدينية هو الفطام عما سوى الحق سبحانه .

فإذا تم الفطام وحصل المقصود بالوصول إلى القربة ، ودوام الترقى من غير فترة حتى أنه لو اشتغل بوظائف الشرع وظواهره انقطع عن حفظ الباطن وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية إلى مراعاة أمر الظاهر .

وهذا الرجل لا ينزع يده من التكاليف الظاهرة ولا يقصر فى احكام الشريعة .

ولكن الاعتقاد الذى كان له فى الظواهر والتكاليف تناقض وتقاصر عما كان فى الابتداء من التعظيم لوقعها عنده ولكنه يباشرها ويواظب عليها عادة لا لأجل الخلق وحفظ نظرهم ومراقبة الله بل صارت إلفاً .

ثم إنه عرضت له شبهة أن المقصود من الداعى والدعوة حصول المعرفة والقربة ، وإذا حصل هذا استغنى عن الداعى والواسطة كيف معالجتها ؟

فإن قلنا : المعرفة لا تنتهى أبداً بل تقبل الزيادة أبداً فلا يستغنى عن الداعى أبداً لا محالة .

فربما قال : الداعى قد بين ما احتيج إلى بيانه وشرح معالم الطريق وذهب ، فلو احتاج السالك إلى مراجعته فيه وزوائد وإيرادات لم تكن المراجعة فى هذه الحالة .

فيقول : ما هو طبيب علتى فى هذه الحالة لأنه غاب عن إمكان المراجعة فما علاجه ؟

فالجواب مسوق حسبما عود من شافي بيانه .

رد الإمام الغزالي :

وقد رد الإمام الغزالي على هذه الرسالة بقوله :

الجواب وبالله التوفيق .

ينبغي أن يتحقق هنا أن من ظن أن المقصود من التكاليف ، والتعبد بالفرائض الفطام عما سوى الله تعالى ، والتجرد له فهو مصيب في ظنه أن ذلك مقصود . ومخطئ في ظنه أن ذلك كل المقصود ولا مقصود سواه .

بل لله تعالى في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام تقصر بضاعة العقل عن دركها .

ومثل هذا الرجل المتخدع بهذا الظن مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل ، ووضع فيه شجرة من حشيش طيب الرائحة . وأكد الوصية على ولده مرة بعد مرة ألا يخلي هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره .

وقال إياك أن تسكن القصر ساعة من ليل أو نهار إلا وهذا الحشيش فيه . فزرع الولد حول القصر أنواعا من الرياحين وطلب في البر والبحر العود والعنبر والمسك وجمع في قصره جميع ذلك . فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح .

فقال الإبن : لا شك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا

لطيب رائحته ، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته فلا فائدة فيه الآن إلا أن يضيّق علىَّ المكان فرماه من القصر .

فلما خلا القصر من الحشيش ظهر من بعض نقب القصر حية هائلة وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك ، فتنبه حيث لم ينفعه التنبه إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة .

وكان لأبيه من الوصية بالحشيش غرضان :

الأول : انتفاع الولد برائحته ، وهذا قد أدركه الولد بعقله .

الثانى : اندفاع الحيات المهلكات برائحته ، وهذا قصر عن دركه الولد ببصيرته فاغتر الولد بما عنده من العلم وظن أنه لا سر وراء معلومه ومعقوله كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ النجم : ٣٠ وقال : ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ غافر : ٣٠ .

وقد عرف أهل الكمال أن قلب الآدمى مثل القصر ، وأنه معشعش فيه حيّات وعقارب مهلكات ، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة المكتوبات ، والمشروعات بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ النساء : ١٠٣ .

فكما أن الكلمات الملفوظة والمكتوبة فى الرقية تؤثر بالخاصة فى استخراج الحيات من القلب ، وبعض الأدعية المأثورة تؤثر فى استمالة الملائكة إلى السعى فى إجابة الداعى ويقصر العقل عن إدراك

كيفية ذلك ، وإنما يدرك ذلك بقوة النبوة إذا كوشف بها .

فكذلك الصلاة المشتملة على ركوع واحد وسجودين وعدد مخصوص وألفاظ معينة ، كل ذلك يؤثر فى تسكين التنين المستكين فى قلب الآدمى الذى يتشعب من حيات كبيرة الرؤوس بعدد أخلاق الآدمى يلدغه وينهشه فى القبر متمكناً من جوهر الروح .

ويكثر مثل هذا التنين فى خلق الآدمى ولا يقمعه إلا الفرائض المكتوبة . فهى المنجية من المهلكات .

فإذاً فى التكليف غرضان أدرك هذا المغرور أحدهما وغفل عن الآخر . . .

فإن أصر هذا المغرور على جهالته وقال : من بلغ درجة الكمال كما بلغت أمن هذا التنين . فيقال له : إنك مغرور فى أمنك فإنه لا ﴿ يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ .

فبم تأمن أن يكون التنين مستكناً فى قلبك استكنان الجمر تحت الرماد وإن مات الإنسان يعود حياً .

وننبه على هذه المعرفة بالتأمل فى ثلاثة أمور :

الأول : حال إبليس وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد اغترارا بما عنده من العلم . ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته وتمسكه بمعقوله فى كونه خيراً من آدم .

الثانى : حال آدم وأنه لم يخرج من الجنة إلا بارتكابه نهياً واحداً ليعلم أن فى ركوب النهى ابطال اعتقاد الكمال لخالقه .

الثالث : حال النبى محمد ﷺ فإنه لم يزل يلازم الحدود ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه .

ومن هذا يظهر لنا أن دعوى التحلل من الشريعة كانت من أناس دخلوا الحقل الصوفي دون معرفة بحقائق التصوف . وأن هذا التحلل مردود عليه من جانب رجال التصوف على سبيل الإجمال كما حدث من الجنيد ، والتسترى ، والبسطامى ، وعلى سبيل التفصيل كما حدث من جانب الغزالى ومن بعده كالتفتازانى ، وفى العصر الحديث من جانب عبد الواحد يحي ، والإمام الدكتور عبد الحليم محمود رضى الله عن الجميع .

المراجـــع

– عوارف المعارف	السهروردى
– الرسالة القشيرية .	القشيرى
– التعرف لمذهب أهل التصوف .	الكلاباذى
– نشأة الفكر الفلسفى .	النشار
– التصوف الإسلامى .	زكى مبارك
– اللمع .	الطوسى
– فلسفة الحياة الروحية .	د / مقداد يالجن
– المقدمة .	ابن خلدون
– الصوفية معتقداً ومسلكاً .	د / صابر طعيمة
– الفتاوى .	ابن تيمية
– الفتوحات المكية .	ابن عربى
– قضية التصوف .	د / عبد الحليم محمود
– رياض الصالحين .	النووى
– الصدق .	لأبى سعيد الخرّاز
– التصوف الثورة الروحية .	أبو العلا عفيفى
– نظرية الإمامة بين الشيعة والصوفية	

- الطرق الصوفية .	المهدلى
- حلية الأولياء .	لأبى نعيم الأصفهانى
- إيقاظ الهمم وشرح الحكم .	لابن عجيبة
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى .	للقاضى عياض
- نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز .	رفاعة الطهطاوى
- إحياء علوم الدين .	الغزالى
- المحلى .	لابن حزم
- الجامع لأحكام القرآن .	القرطبى
- ديوان الإمام الشافعى .	الشافعى
- اصطلاحات الصوفية .	للكاشانى

۞ ۞ ۞

فهرس الموضوعات



رقم الإيداع

٤٠٣٨/٢٠٠٨